القرآن... دستورنا

جمع وترتيب وتبويب

أستاذ دكتور

عبد الرحيم سلطان متولى



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: القرآن دستورنا

إعـــــداد: عبد الرحيم سلطان متولى

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١٢

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

yokoboko_2@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد السادات، سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

هل تعلم: كم مادة من مواد القانون الوضعى صاغها رجال القانون لتوافق هوى في نفوسهم، ثم نوقشت في مجلس الشعب وعدلت أيضا لتوافق هوى من أراد تعديلها، ثم تتجاذبها الأهواء فلا ترضى جميع العباد على اختلاف أهوائهم ومشاربهم، بينما كتاب الله ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ [سورة هود، آية: ١]؛

﴿ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلاله، كل كلمة وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم؛ متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، ومنسقة ذات نظام واحد، ثم فصلت فهى مقسمة وفق أغراضها؛ مبوبة وفق موضوعاتها، وكل منها له خبر بمقدار ما يقتضيه، أما من أحكمها وفصلها على هذا النحو الدقيق؛ فهو الله سبحانه وتعالى وليس الرسول، ﴿ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فهو يعرف مصالح العباد وفطرتهم ومصالح المجتمع، ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾.

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣ ﴾ [سورة السجدة، آيات: ١ - ٣]،

الفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هذه الأحرف من مواد، هو الفارق بين صنعة الله وصنعة البشر في سائر الأشياء؛ فصنعة الله واضحة مميزة، لا تبلغ إليها صنعة البشر في أصغر الأشياء، وهو لا ريب فيه من رب العالمين، وهو الحق بما في طبيعته من صدق ومطابقة لما في الفطرة من الحق الأزلي، وهوالحق بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذي يعيشون فيه ونواميسه الكلية، وهو الحق الذي لا يظلم أحداً في دنيا أو آخرة، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ فهدايتهم مرجوة بهذا الكتاب لما فيه من الحق الذي يخاطب الفطرة ويخاطب القلوب. ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة الجاثية، آية: ٢٠]، فهو بمثابة الضياء الذي يكشف للناس طريقهم، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن.

قال تعالى: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [سورة الزخرف، آيات: ١ - ٤]، فقد جعل الله القرآن في صورته هذه اللفظية عربياً، لعلهم يعقلون، ومنزلة القرآن عند الله وقيمته في تقديره الأزلي الباقي عليٌ حكيم، ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي: في اللوح المحفوظ أو علم الله الأزلي؛ فهذا القرآن عليٌ حكيم وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة، وإنه لكذلك ! وكأنما فيه روح؛ روح ذات سمات وخصائص، تتجاوب مع الأرواح التي تلامسها، وهو في علوه وحكمته يشرف على البشرية ويهديها، ويقودها وفق طبيعته وخصائصه، وينشىء في مداركها وفى حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التي تنطبق عليها هاتان الصفتان؛ علي حكيم،

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى، آية: ٥٢] أي في القرآن حياة، ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها في القلوب وفى الواقع العملى المشهود، ويهديها إلى الطريق القويم.

ويقرر هذا القرآن بادىء ذى بدء الدينونة لله وحده بلا شريك، والعبودية لله وحده بلا منازع، والتلقي عن رسل الله وحدهم، مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء لا دار جزاء، والآخرة هى دار الجزاء، وأن حرية الاعتقاد التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هى مناط هذا الابتلاء حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، [سورة هود، آية: ٢]، والدينونة لله وحده تتمثل في ربوبيته وحده للناس، والربوبية تعنى القوامة على البشر وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله؛ لا من أحد سواه، فكتاب الله وحده هو من يشرع الشرائع، ومن يقرر القيم والتقاليد والعادات، فإذا زعم زاعم أنه مسلم لا يشرك بالله بينما هو لا يدين لله وحده ولا يتلقى منه وحده عن طريق كتابه وسنة نبيه؛ فلا قيمة لهذا الزعم الذي يكفر به واقع الدينونة لغير الله.

وقد جاءت الآية ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ في أول سورة هود مكملة للآيات الأخيرة من سورة يونس قبلها ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [سورة يونس، آيات: ١٠٨، ١٠٩].

نزل القرآن على نبى الإسلام محمد - صلى الله عليه وسلم - ليربى أمة، ويقيم لها نظاما، فحملته هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها، تعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الدخان، آية: ٣] قال ابن جزى: وكيفية إنزاله منها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل به جبريل شيئاً بعد شيء (التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٤)، إذن لكى يربى هذا القرآن أمة تنَزل مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى، والتربية تتم في الزمن الطويل، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل؛ جاء القرآن ليكون منهجاً عملياً فيحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الإعداد، وتلك هى حكمة نزوله مفرقاً؛ لا كتاباً كاملاً منذ اللحظة الأولى، ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى؛ تلقوه توجيهاً يطبق في واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أونهى، فتكيفوا به في حياتهم اليومية؛ تكيفوا به في مشاعرهم وضمائرهم، وفى سلوكهم ونشاطهم؛ في بيوتهم ومعاشهم، فكان منهج حياتهم الذي طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ومما عرفوه ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء، آيات ١٠٥ - ١٠٦]، لقد أنزل الله هذا القرآن قائماً على الحق، تنزَل ليقر الحق والعدل في الأرض ويثبته، فالحق مادته والحق غايته، ومن الحق قوامه وبالحق اهتمامه، والرسول - صلى الله عليه وسلم - مبشر ومنذر بهذا الحق الذي جاء به.

قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ٧١]، فالقرآن موافق للفطرة وفيه المنهج القويم والتشريع المحكم، والحق لا يمكن أن يدور مع الهوى، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وبالحق يستقيم الناموس وتجرى السنن في هذا الكون وما فيه ومن فيه، فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض، ولو خضع الكون للأهواء العارضة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى، والكره والبغض، والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول، وسائر ما يعرض من الأهواء والانفعالات والتأثرات، وبناء الكون المادى واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم، لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد، ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءاً من الناموس الكونى، تتولاه اليد التي تدبر الكون كله، وتنسق أجزاءه جميعاً، والبشر جزء من هذا الكون؛ خاضع لناموسه الكبير، فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب، وبذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل، ولن يقوم للمسلمين ذكر إلا يوم أن تفيء إلى كتابها.

تنَزَل القرآن على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، وهو يخاطب البشر في كل زمان ومكان، لقد حمل المسلمون الأوائل في صدر الإسلام رسالة القرآن ففتحوا البلاد وقادوا البشرية قروناً طويلة فكان به ذكر العرب ومجدهم، ولم يكن لهم قبله ذكر،

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء، آية: ١٠] حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية وانحط فيها ذكرهم وصاروا ذيلاً للقافلة يتخطفهم الناس، " ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [سورة الأنبياء، آيات ١ - ٤] تعرض الآيات من القرآن الكريم على الناس وهم معرضون عن هداه، فهو يتلى عليهم في كل وقت وحين ولكنهم قابلوه باللهو والاستهتار؛ لم يتأملوا ويتدبروا آياته، ولم يجعلوه دستوراً لحياتهم ومنهاجاً للعمل وقانونا للتعامل كما كان المسلمون الأوائل يتعاملون معه، وكان المشركون كما هو الحال في كل زمان ومكان يتناجون فيما بينهم ويتآمرون خفية، ويكذبون بما جاء في القرآن، والله أعلم بنجواهم وتدبيرهم.

والآيات: ٤٥، ٤٦ من سورة الأنبياء تتضمن إنذارا شديدا من الله تعالى للناس بسبب إعراضهم عن القرآن، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾، فإما التمسك بكتاب الله وإلا التخبط والفساد والعذاب، فليبادر الغافلون المعرضون عن كتاب الله قبل أن يحق عليهم النذير في الدنيا أو في الآخرة، فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة التي تُعد موازينه، ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾، [سورة الأنبياء، آية: ٤٧].

وقد قضت مشيئة الله في خلقة الإنسان - حين يغفل قلبه عن ذكر الله - أن يجد الشيطان طريقه إليه فيلزمه ويصبح له قريناً؛ يوسوس له ويزين له السوء، ويصده عن سبيل الله، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾، [سورة الزخرف، آيات: ٣٦ - ٣٧].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الحج، آية: ٢٥]، كان المشركون في قريش يصدون الناس عن دين الله، وهو سبيله الواصل إليه، وهو طريقه الذي شرعه للناس، وهو نهجه الذي اختاره للعباد، وكان ذلك فعل المشركين في كل زمان ومكان، وهم في ذلك كمن يمنعوا الناس عن منطقة الأمان، ودار السلام، وواحة الاطمئنان وهو البيت الحرام ﴿ جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ ﴾ والضمير هنا يعود إلى سبيل الله وكذلك المسجد الحرام؛ فهما أمان وواحة اطمئنان ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فما بال من يريد ويفعل ؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة في التحذير.

فليعلم الناس ما لديهم من نعمة وبركة هذا القرآن، فليتدبروا آياته ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة ص، آية: ٢٩]، قال الحسن البصرى: والله ماتدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى أن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا، وقد أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل (تفسير الكشاف ٤/٧٠).

إن في هذا القرآن لبلاغا وكفاية للعابدين الخاشعين، العاملين به والمتدبرين لآياته، ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى، فالمنهج الذي جاء به يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة.

الحمد لله على إنزاله القرآن بهذه الاستقامة؛ فلا عوج فيه ولا التواء ولا مداراة، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [سورة الكهف، آية: ١] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن أشد الحزن أن يكذب قومه القرآن ويعرضوا عن هداه، ونحن أيضا نحزن كثيراً ألا يعمل المسلمون بهذا القرآن ويجعلوه دستورا لهم في حياتهم ومعاشهم ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾، [سورة الكهف، آية: ٦].

وفى هذه التقدمة كفاية، والله نسأل، وبنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام إليه نتوسل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الأمة النفع العميم إنه الجواد الكريم.

أ. د. عبد الرحيم سلطان متولي

* * *

خلق الإنسان وهداية الله

كان آدم - عليه السلام - آخر ما خلق الله من الخلق ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [سورة الإنسان، آيات: ١ - ٣] خلق الله آدم من تراب، ثم أخرج من ضلعه زوجه حواء، ثم جعل نسله من نطفة أمشاج وهو ماء الرجل ممشوجا بماء المرأة، وجعل له السمع والبصر ليهتدى طريق الحق وعرفه سبيل الحق، بما أرسل إليه رسله، وما يحملونه من كتب، فيختار الإنسان أي الطريقين ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [سورة الإنسان، آية: ٣].

يذكر الله الإنسان بأبيه آدم وأمه حواء وسبب خروجهما من الجنة بوسوسة الشيطان لهما وعصيانهما أمر ربهما بعدم الأكل من الشجرة، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ٣٤ - ٣٩]؛ فكان من أثر ذلك العصيان أن أنزلهما الله إلى الأرض، حيث التكاليف المادية والحاجات الجسدية، وحيث المنازعات والمخاصمات، وكل ما تقتضيه الحياة الطينية من المنغصات والكروب، ثم رحم الله آدم وألهمه كلمات يدعوه بها، وقيل ان هذه الكلمات هى ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٢٣]

فتاب عليه، ثم قرر لذريته أن يرسل إليهم من حين لآخر هداة لهداية الضالين وتنبيه الغافلين، فمن تبعهم وآمن بهم نجا، ومن كذبهم وكفر بآيات الله هلك، ومازال الشيطان يوسوس لذرية آدم ليخرجهم من النور إلى الظلمات بعصيان الله تعالى، فمن يعص الله ويطع وسوسة الشيطان يحرم العودة إلى الجنة ويفتن عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف، آيات: ٢٩ - ٣٠]، وأما الذين أطاعوا الله وخالفوا الشيطان فقد ردوا إلى الجنة ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٤٣].

* * *

تحذير الله للإنسان من مكايد الشيطان

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف، آيات: ١١ - ٢٧]

أي: لقد خلقناكم في صلب آدم، أو في أصلاب آبائكم، ثم صورناكم في أرحام النساء، ومن الملاحظ قول إبليس: لأقعدن لهم طريقك القويم وهو اتباع شرع الله والاستسلام والخضوع لله ﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ ولم يقل إبليس من فوقهم لأن رحمة الله تنزل على عباده من فوقهم، ويظهر حقد إبليس للإنسان وغروره بقوله لله أنه أفضل خلقة من الإنسان حين طلب منه الله السجود لأدم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الحجر، آيات: ٢٨ - ٤٢]، يكرر الله تحذيره للإنسان من مكايد الشيطان أيضا في سورة الحجر، طلب إبليس النظرة إلى يوم البعث لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويُكَفِر عن إثمه الجسيم، ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده؛ يربط لعنة الله له بآدم، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح نكير ! وحدد عدته فيها، إنه التزيين؛ تزيين القبيح وتجميله،

والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه، وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزيينه وتجميله، وإظهاره على غير حقيقته، فليفطن الإنسان إلى عدة الشيطان، وليحذر كلما وجد في أمرٍ تزييناً، وكلما وجد من نفسه إليه اشتهاء، ولكن الله يستخلص لنفسه من عباده من يُخلِص نفسه لله ويجردها له وحده ويعبده كأنه يراه، ويراقبه في كل عمل يعمله، فهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان.

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة طه، آيات: ١٢٣ - ١٢٧].

وتكرر إعلان الخصومة بين الشيطان والإنسان في سورة طه فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده، أن يقول أحد منهم إنما أُخذت على غرة من حيث لا أدرى فقد درى وعلم ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ ﴾، ولكن شاءت رحمة الله بعباده - مع هذا الإعلان - أن يرسل إليهم رسله بالهدى، قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ أي: فمن اتبع هدى الله فهو في أمان من الضلال والشقاء، ومن أعرض عن ذلك الهدى الداعى إلى ذكرى فإن له معيشة ضيقة بسبب ما يحتوشه من مطامع الحياة، وما يشعر به من عدم نيل جميع أهوائه.

* * *

كيف نطلب الهداية إلى صراط الله المستقيم !

علّمَنا الله كيف نحمده ونطلب هدايته في قرآنه العظيم بفاتحة الكتاب.

قال تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [سورة الفاتحة، آيات: ٢ - ٧].

يبدأ العبد بالخضوع وإظهار الذل لله وحمده على ربوبيته وحده على العالمين، والإيمان بملكوت الله، والإيمان بالآخرة، ثم يسأله المعونة على الطاعة وعلى جميع أمره، ثم بعد ذلك يسأله الهداية والتوفيق إلى الطريق الواضح المستقيم في زمرة الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [سورة النساء، آية: ٦٩].

فهؤلاء هم الذين أيدهم الله بنعمته وفضله - ويستعيذ من السير في الطريق الذي سلكه المغضوب عليهم لمعرفتهم الحق ومخالفتهم له، والذين ضلوا عن الحق ولم يهتدوا إليه أصلاً.

ويردد المسلم هذا الدعاء في اليوم أكثر من سبع عشرة مرة على الحد الأدنى في فرض الصلاة المكتوبة، وأكثر من ضعف ذلك إذا صلى السنن، وإلى غير حد إذا رغب في أن يقف بين يدى الله متنفلاً غير الفرائض المكتوبة والسنن، ولا تقوم صلاة بغير هذا الدعاء الجامع وما فيه من كليات العقيدة الإسلامية،

وكليات التصور الإسلامى، وكليات المشاعر التي تربط المسلمين جميعاً في وحدة واحدة.

حيث يأتى هذا الدعاء بصيغة الجمع ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ليدل ذلك على وحدة الخالق وهو الله جل وعلا وربط المخلوقين جميعاً به، كما أن الدعاء ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ لا يكون للفرد المسلم فقط وهو اللبنة الأولى في المجتمع المسلم، ولكن يكون له وللمسلمين جميعاً بالهداية إلى الصراط المستقيم الواصل، فاللهم ألهمنا ووفقنا إلى معرفة الطريق المستوى المعتدل الواصل وهو صراط الله المستقيم، ووفقنا للاستقامة على هذا الطريق وعدم الانحراف عنه قيد أنملة.

* * *

أين تجد صراط الله المستقيم !

بعد أن تطلب المعونة من الله وحده وتدعوه أن يهديك إلى الصراط المستقيم، وأنت مقر بالعبودية إعتقادا جازما لا لبس فيه، تتلو القرآن في تدبر وخشوع لله - سبحانه وتعالى - وأنت واقف بين يديه في صلاتك، هنا يكشف الله لك عن هداه بقدر إيمانك به؛ يكشف لك عن صراطه المستقيم، وهو كل ما أمر الله به في كتابه، ونهى عنه؛ فيهديك للاستقامة على العمل بكل ما في هذا الكتاب ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢] أي: أن في هذا القرآن هدى للمتقين. فالمسلم يتلو القرآن ويتدبر آياته آناء الليل وأطراف النهار في صلاته، ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدوة حسنة حيث يقول الله - تعالى - له:﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء، آيات ٧٨ - ٨٢]، فالقرآن شفاء لأدواء النفوس، وهدى ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسراناً لأنهم لا يتلونه ولا ينتفعون بما فيه، ذلك في الدنيا، أما في الآخرة فهم لا يستحقون شفاعة الرسول لهم من شدة ذلك اليوم، وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [سورة هود، آية ١١٤] أي: الصلوات الخمس.

ويهدى الله المؤمنين إلى الحق وإلى الصراط المستقيم الذي يكشف عنه القرآن، ﴿ وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٢٦]، ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٥٣] و قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [سورة الأنعام، ١٦١]، وفى سورة الأعراف في الآية ٢٠٣ يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة إبراهيم، آيات: ١ - ٣] أي: لتخرج الناس من ظلمات الجهل والفساد إلى نور الهداية بإذن الله، فسبيل الله هو نور التوحيد، وهو الصراط المستقيم؛ هو النور الذي يكشف الظلمات؛ يكشفها في عالم الضمير، وفى واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد والتشريع؛ فالإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق واضح إلى الله، ومتى رأت النور سارت على هدى؛ لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار، فالإيمان بالله وحده إلهاً ورباً؛ منهج حياة كامل، لا مجرد عقيدة تغمر الضمير، وتسكب فيه النور؛ منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده، والدينونة لربوبيته وحده، والتخلص من ربوبيات العبيد ومناهج العبيد في السياسة والحكم، وفى الاقتصاد والاجتماع، وفى الخلق والسلوك، وفى العادات والتقاليد، والنور يدل إلى صراط العزيز الحميد،

أو يهدى إلى هذا الصراط، أو النور هو الصراط، فالنور المشرق في ذات النفس هو النور المشرق في ذات الكون، وهو السنة والناموس، وهو الشريعة، والنفس التي تعيش في هذا النور لا تخطىء الإدراك، ولا تخطىء السلوك، فهى على صراط مستقيم ﴿ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ أي: مالك القوة القاهر المسيطر المحمود المشكور، والقوة هنا تبرزلتهديد من يكفرون، والحمد يبرز لتذكير من يشكرون، وويل للكافرين الذين يصدون أنفسهم ويصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا؛ لا استقامة فيها ولا عدالة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة النور، آية: ٤٦] أي: آيات الله مبينة كاشفة، تكشف عن ينابيع هداه، وتحدد الخير والشر، والطيب والخبيث، وتبين منهج الإسلام في الحياة كاملاً دقيقاً؛ لا لبس فيه ولا غموض، وتحدد أحكام الله في الأرض بلا شبهة ولا إبهام، فإذا تحاكم الناس إليها، فإنما يتحاكمون إلى شريعة واضحة، ومشيئة الله مطلقة لا يقيدها قيد، غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقاً؛ من وجه نفسه إليه وجد فيه هدى الله ونوره، فاتصل به وسار على الدرب حتى يصل ومن حاد عنه وأعرض فقد النور الهادى، ودخل في طريق الضلال، حسب مشيئة الله في الهدى والضلال.

قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة سبأ، آية: ٦]، وقد ورد أن المقصود بالذين أوتوا العلم هم أهل الكتاب الذين يعلمون من كتابهم أن هذا القرآن هو الحق، وأنه يقود إلى صراط العزيز الحميد، ويرى صاحب الظلال: أن مجال الآية أكبر وأشمل، فالذين أوتوا العلم في أي زمان ومكان، ومن أي جيل ومن أي قبيل، يرون هذا متى صح علمهم واستقام، واستحق أن يوصف بأنه العلم والقرآن

كتاب مفتوح للأجيال، وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذى علم صحيح، وهو يكشف عن الحق المستكن في كيان هذا الوجود كله، وهو أصدق ترجمة وصفية لهذا الوجود وما فيه من حق أصيل (ظلال القرآن ٢٨٩٤)،

﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ أي: أن هذا القرآن يهدى إلى المنهج الذي أراده الله للوجود، واختاره للبشر لينسق خطاهم مع خطى هذا الكون الذي يعيشون فيه، وهو الناموس الذي يهيمن على أقدار هذا الكون كله، بما فيه من الحياة البشرية التي لا تنفصل في أصلها ونشأتها، ولا في نظامها وحركتها عن هذا الكون وما فيه ومن فيه.

﴿وَيَهۡدِي إِلَى صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ بتصحيح منهج التفكير، وإقامته على أسس سليمة؛ متفقة مع الإيقاعات الكونية على الفطرة البشرية، بحيث يؤدى هذا المنهج بالفكر البشرى إلى إدراك طبيعة هذا الكون وخواصه وقوانينه والاستعانة بها، والتجاوب معها بلا عداء ولا اصطدام ولا تعويق.

﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ بمنهجه التربوى الذي يُعد الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية.

﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ بما فيه من نظم وتشريعات مستقيمة مع فطرة الإنسان وظروف حياته ومعاشه.

إن هذا الكتاب هو الدليل إلى هذا الصراط؛ الدليل الذي وضعه خالق الإنسان، وخالق الصراط، العارف بطبيعة هذا وذاك ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [سورة الملك، آية: ١٤].

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة فاطر، آيات: ٢٨ - ٢٩] أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر (مختصر ابن كثير ٣ / ١٤٦) ثم أخبر الله تعالى في الآية التالية لها عن صفات هؤلاء الذين يخافونه ويرجون رحمته، فبين أن من أول صفاتهم أنهم يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ويقيمون الصلاة.

* * *

الهداية إلى الصراط المستقيم ومشيئة الله

يختار الله من يشاء من عباده للهداية إلى الصراط المستقيم؛ من يعلم منهم الاستعداد للهدى والاستقامة على الصراط، حيث قال - تعالى - في سورة الحج، الآية: ٢٤ عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ أي: هداهم الله في الدنيا إلى الإسلام، ومن ثم هداهم إلى طريق الدين الحميد المحمود المبين في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الرعد، آية: ٢٧]، فالله يهدى من ينيبون إليه، والإنابة إلى الله هى التي جعلتهم أهلاً لهداه، والمفهوم إذن أن الذين لا ينيبون هم الذين يستحقون الضلال، فيضلهم الله؛ إذن فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه، أما القلوب التي لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [سورة الإسراء، آية: ٩٧] لقد جعل الله للهدى والضلال سنناً وترك الناس لهذه السنن يسيرون وفقها ويتعرضون لعواقبها، ومن هذه السنن أن الإنسان مهيأ للهدى وللضلال، وفق ما يحاوله لنفسه من السيرفى طريق الهدى أو طريق الضلال، فالذى يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله، وهذا هو المهتدى حقاً لأنه اتبع هدى الله، والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله، ويروى القرآن عن أصحاب الكهف فيقول أنهم اتخذوا طريق الإيمان فألهمهم الله كيف يدبرون أمرهم ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾ [سورة الكهف، آية: ١٣]

وثبت قلوبهم مطمئنين إلى الحق ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [سورة الكهف، آية: ١٤]، ولذلك كان التعقيب ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [سورة الكهف، آية: ١٧]. إذن فللهدى والضلال ناموس، فمن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه، وهو المهتدى حقاً، ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل، وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهى، فقد أضله الله، ولن تجد له من بعد هادياً.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الحج، آية: ١٦] أنزل الله هذا القُرآن ليهتدى به من يفتح له قلبه فيقسم الله له الهداية، وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال، فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته وفق سنته، وكذلك من طلب الضلال.

قال تعالى: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [سورة الرعد، آية: ٢٧] يخبرنا القرآن عن الذين كفروا أنه بسبب أنهم ستروا أدلة الإيمان، وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى، حقت عليهم سنة الله، وصورَت لهم نفوسهم أنهم على صواب، وأن مكرهم وتدبيرهم ضد الدعوة حسن وجميل، فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم، ومن تقتضى سنة الله ضلاله لأنه سار في طريق الضلال، فلن يهديه أحد، لأن سنة الله لا تتوقف إذا حُقت بأسبابها على العباد.

وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٤٦]

أي: سأنزع عنهم فهم القرآن وحجج الله أن يتفكروا فيها وأن يعتبروا ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ وهم الذين حقت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ أي: الهدى ﴿ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾، ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ ﴾ أي: الهلاك ﴿ يَتَّخِذُوه سَبِيلاً ﴾ وذلك بسبب أنهم يتكبرون بغير الحق ويؤثرون الجهل والضلال على سبيل الرشد والهدى.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الحجر، آيات: ٩ - ١٣] أي: أن هذا القرآن مبرأ من التحريف، فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل ولا يلتبس بالباطل، ثم يقول الله - تعالى - لرسوله أنه ليس بدعاً من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والتكذيب، فهكذا المكذبون دائماً في عنادهم الذميم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: على هذا النحو الذي تلقى به المكذبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم؛ يتلقى المكذبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به، وعلى هذا النحو نجرى هذا التكذيب في قلوبهم التي لا تتدبر ولا تحسن الاستقبال، جزاء ما أعرضت وأجرمت في حق الرسل المختارين

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: سلك الله التكذيب في قلوبهم سواء في هذا الجيل أم الأجيال الخالية أو الأجيال اللاحقة، فالمكذبون أمة واحدة " وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ " أي: وقائع الله فيمن خلا من الأمم. وفى سورة الشعراء،

قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [آيات: ٢٠٠ - ٢٠٢] فالتكذيب مكتوب عليهم، ملازم لهم بحكم عنادهم ومكابرتهم، فهكذا قُضيَ الأمر أن يتلقوا القرآن بالتكذيب كأنه طُبع في قلوبهم لا يُحول حتى يأتيهم العذاب وهم في غفلة لا يشعرون.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٤٨] يرد الله على المشركين بقوله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم هل عندكم أيها المشركون علم نتيقن به أن ربكم رضِيَ الشرك منكم في عباده، وما كانوا يحرمونه ويحلونه في الذبائح والمطاعم؟ ولكن الله علِم منهم ذلك في علمه الأزلي.

قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة المدثر، آيات: ٥٤ - ٥٦] فالذكر توفيق من الله، يُوفق إليه من يخاف الآخرة ولكن المجرمون أعرضوا عن الذكر وهو القرآن الكريم، بل كان يريد كل امرىء منهم أن تنزل عليه صحف خاصة منشورة ومعنونة باسمه، ولا يخفى أن هذا تعنت واستهانة (المصحف المفسَر لمحمد فريد وجدى ٧٧٨).

ثم يخاطب الله الأمم كما خاطب الأفراد فيقول الله تعالى في (سورة الحج، آيات ٦٧، ٦٨): ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أي: أن لكل أمة منهجاً وطريقة في الحياة والتفكير والسلوك والاعتقاد؛ هذا المنهج خاضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات، وهى سنة ثابتة مطردة دقيقة، فالأمة التي تفتح قلوبها لدواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس هي أمة مهتدية إلى الله، بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته، والأمة التي تغلق قلوبها دون تلك الدواعي والدلائل هي أمة ضالة، وتزداد ضلالاً كلما زادت إعراضاً عن الهدى ودواعيه، وهكذا جعل الله لكل أمة منسكا هم ناسكوه، ومنهجاً هم سالكوه، فلا داعي إذن أن يشغل الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفسه بمجادلة المشركين، وهم يصدون أنفسهم عن منسك الهدى، ويمعنون في منسك الضلال، والله يأمره ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أمره، ويجادلوا في منهجه، كما يأمره أن يمضى على منهجه، ولا ينشغل بجدال المجادلين، فهو على منهج مستقيم.

و قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الشورى، آية: ٨] أي: لو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم، فتوحد مصيرهم؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار،؛ إما ملائكة وإما شياطين، ولكن سنة الاختلاف موجودة في خلقه، فكل له استعداد؛ إما يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى أوالنور والعمل الصالح، أويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيئ، كل منهما يسلك وفق أحد الاحتمالات الممكنة في طبيعة تكوين هذا المخلوق البشرى،

وينتهى إلى النهاية المقررة لهذا السلوك، فريق في الجنة وفريق في السعير وهكذا﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ وفق ما يعلمه الله من حال هذا الفريق وذاك، واستحقاقه للرحمة بالهداية، أو استحقاقه للعذاب بالضلال.

* * *

إهلاك المكذبين بعد تأكيد الحجة عليهم

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة القصص، آية: ٥٩] أي: لا يهلك الله أهل القرى الكافرة حتى يبعث في أهلها رسولاً يبلغهم رسالة الله لقطع الحجج والمعاذير، وما كان ليهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك، لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم ببعثة المرسلين، قال القرطبى: أخبر الله - تعالى - أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم، وفى هذا بيان لعدله، ولا يهلكهم - مع كونهم ظالمين - إلا بعد تأكيد الحجة عليهم والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه - تعالى - بأحوالهم حجة عليهم (القرطبى ١٣/ ٣٠٢).

* * *

موقف الأحزاب من العمل بالقرآن

قال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥ ﴾ [سورة النبأ، آيات: ١ - ٥] أي: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون بالله ؟!، يتساءلون عن النبأ العظيم، وعنى به القرآن الكريم وقيل: البعث بعد الموت، ولو أن البعث إنما هو أحد أركان الإيمان المذكورة في القرآن، ﴿ ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴾ أي فريق منهم مصدق به وفريق مكذب، ويأتى وصف هؤلاء وأولئك في أول سورة البقرة.

* * *

أولاً: المصدقون " المتقون "

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ١ - ٥]، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ أي: القرآن، فيه هداية ونور للمتقين، والهدى في هذا الموضع مصدر هديت، بمعنى هديت فلاناً الطريق إذا دللته عليه، إذن فمن هم المتقون ؟ المتقون هم الخائفون من الله؛ فهم يصدقون بالكتاب وما جاء به من الله - عز وجل - من الإيمان بالله والملائكة والبعث والجنة والنار مما لم يُر وغاب عن المشاهدة، ويؤدون الصلاة ولا يعطلونها، ويعطون الزكاة، ويتصدقون بأموالهم في سبيل الله، ويؤمنون كذلك بما أنزله الله على المرسلين قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - من الكتب السماوية، أولئك المتقون هم المهديون الفائزون لأنهم المصدقون العاملون بما في كتاب الله.

قرر الله الفلاح للمؤمنين في أول سورة المؤمنون ونفاه عن الكافرين في آخرها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ١] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ١١٧] واستفاض في وصف خصائص المؤمنين المكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتمكين في الأرض، ثم الفوز والنجاة والثواب والرضوان في الآخرة، فما هي تلك الخصائص ؟ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة المؤمنون، آيات: ٢ - ١١]، فهم يستشعرون عظمة من يقفون بين يديه في الصلاة؛ خاشعوا الجوارح والأعضاء؛ متدبرون لآيات الله، معرضون عن لغو القول والفعل، ولغو الاهتمام والشعور، ولهم ما يشغلهم من تكاليف العقيدة؛ تكاليفها في تطهير القلب وتزكية النفس وتنقية الضمير، وتكاليفها في السلوك، وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف؛ فالطاقة البشرية محدودة، وهى إما أن تُنفق فيما يصلح الحياة وينميها، وإما أن تُنفق في اللغو واللهو، والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح، ومن خصائصهم أيضاً أنهم يطهرون قلوبهم من الشح، ويثقون بما عند الله من العوض والجزاء، فطهارة المال تجعل ما بقى منه بعد زكاته طيباً حلالاً، كما أن في الزكاة صيانة للجماعة من الخلل الذي يُنشِئه العَوز في جانب والترف في جانب آخر؛ فهى تأمين اجتماعى

للأفراد جميعاً، وهى ضمان اجتماعى للعاجزين، ووقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال، ثم إن المجتمع المؤمن يتميز بطهارة الروح وطهارة البيت والأسرة، فالإيمان يحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب، وإلا كانت الجماعة معرضة للخلل والفساد؛ لا أمن فيها للأسرة والبيت، والمؤمنون راعون لأماناتهم وعهدهم؛ أفراداً وجماعات، والأمانات كثيرة في عنق الفرد والجماعة، وفى أولها أمانة الفطرة، وهى الشهادة بوحدانية الله وربوبيته للعباد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٧٢]، ثم تأتى سائر الأمانات تبعاً لتلك الأمانة الكبرى، فعلى هذا العهد الأول تقوم جميع العهود والمواثيق؛ فكل عهد يقطعه المؤمن يجعل الله عليه شهيداً عليه فيه، ويرجع في الوفاء به إلى تقوى الله وخشيته، وما تستقيم حياة جماعة إلا أن تُؤدى فيها الأمانات وترعى فيها العهود، والمؤمنون يحافظون على صلاتهم، فيؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن، ولا يعطلونها، ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة، وهو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، والذى شهد له في كتابه بعظمة خلقه حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم، آية: ٤]، ولقد سئلت عائشة - رضى الله عنها - عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فقالت: كان خلقه القرآن ثم قرأت ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ١] حتى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ٩] وقالت هكذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (أخرجه النسائى).

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [سورة لقمان، آيات: ١ - ٥] أي: آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين وهم الذين يعبدون الله وكأنهم يرونه يقيناً فإن لم يكونوا يرونه فهو يراهم، وصفاتهم مذكورة في الآيات من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالآخرة، وهذا الكتاب الحكيم وآياته هدى؛ يهديهم إلى الطريق الواصل الذي لا يضل سالكوه، ورحمة بما يسكبه الهدى في القلب من راحة وطمأنينه، وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح، وبما يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به، ثم بين هذه القلوب ونواميس الكون الذي نعيش فيه، والقيم والأحوال والأحداث التي تتعارف عليها القلوب المهتدية ومن هُدِيَ فقد أفلح، فهو سائر على النور، واصل إلى الغاية؛ ناجٍ من الضلال في الدنيا ومن عواقب الضلال في الآخرة.

* * *

ثانياً: المكذبون وهم الكفار والمنافقون

الكفـــار:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ٦ - ٧] فهؤلاء القوم واضحوا الكفر؛ يتساوى عندهم أن تخوفهم أو لا تخوفهم فهم لا يؤمنون بالله؛ قد أغلق الله قلوبهم وختم عليها وعلى أسماعهم، فلا يتسرب إليها علم يصلحهم ويحييهم، وجعل على أبصارهم غطاء فلا يتدبرون آيات الله في الكون وفى أنفسهم ليتعظوا بها، ومن ثم فهؤلاء سينالهم عذاب عظيم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۝٣١ ﴾ [سورة سبأ، آية: ٣١] أي: قال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بما سبقه من الكتب السماوية الدالة على البعث والنشور، طبقاً لسياق الآيات " قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٠ ﴾ [سورة سبأ، آيات ٢٩ - ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦ ﴾ [سورة فصلت، آية: ٢٦] وهكذا كان استقبال المشركين للقرآن في كل زمان ومكان، وهو كتاب فُصلت آياته: ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة فصلت، آية: ٣] وتفصيله محكم وفق الأغراض والأهداف، ووفق أنواع الطبائع والعقول،

ووفق البيئات والعصور، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتمييز، ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [سورة فصلت، آية: ٤] وليس هذا فحسب ولكنهم عرضوا غيرهم ألا يستمعوا إلى القرآن. و قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة فصلت، آيات ٤١ - ٤٤] فآيات هذا الكتاب هدى وشفاء للمؤمنين؛ فقلوب المؤمنين هى التي تدرك طبيعته وحقيقته فتهتدى به وتشتفى، أما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة لا تخالطها بشاشة هذا الكتاب، فهو وقر في آذانهم، وعمى في قلوبهم، وهم لا يتبينون شيئاً لأنهم بعيدون جداً عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه، والقرآن لا يتغير مع تغير الزمان، ولكن القلوب هى التي تغيرت.

* * *

المنافقون:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ٨ - ٢٠]، استعرضت الآيات صفات المنافقين والذين يسمون أنفسهم إصلاحيون، فهؤلاء القوم واضحوا الكفر يتساوى عندهم أن تخوفهم أو لا تخوفهم؛ فهم لا يؤمنون بالله، وقد أغلق الله قلوبهم وختم عليها وعلى أسماعهم، فلا يتسرب إليها علم يصلحهم ويحييهم، وجعل على أبصارهم غطاء فلا يتدبرون آيات الله في الكون وفى أنفسهم ليتعظوا بها، ومن ثم فهؤلاء سينالهم عذاب عظيم في الآخرة، وهؤلاء القوم يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وهم كاذبون؛ فهم يقولون ذلك نفاقاً وخوفاً من المؤمنين، وهم بذلك يخادعون الله والذين آمنوا ولو عقلوا لعلموا أنهم

إنما يخدعون أنفسهم، والله يعلم ما في قلوبهم من مرض الشك والعناد والحسد، فزادهم مرضاً لعلمه بنيتهم، ولهم عذاب أليم جزاء نفاقهم، وإذا نصحهم ناصح باتباع الصراط المستقيم والعمل بكتاب الله وعدم الإفساد في الأرض بالعمل بما لا يرضاه الله ويضر الناس، ادعوا أنهم مصلحون، مع أنهم في الواقع جراثيم الفساد وأسباب البلاء ولكنهم لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا بكتاب الله وما فيه كما آمن الناس، قالوا أتريدون منا أن نكون مثل هؤلاء السفهاء وضعفاء العقول؛ فنصدق الأوهام وننقاد للأضاليل، مع أنهم في الواقع هم ضعفاء العقول، ولكنهم لا يفقهون، وإذا قابلوا المؤمنين قالوا لهم خوفاً ومداراة، آمناً كما آمنتم؛ وإذا خلوا إلى إخوانهم في الكفر؛ قالوا لهم هونوا على أنفسكم فإننا لا نزال على مبدئنا معكم، وتظاهُرنا بالإيمان إنما هو استهزاءٌ بالمؤمنين، فالله يستهزىء بهم ويزيدهم طغياناً ليزدادوا حيرة وضلالاً، ذلك بأنهم باعوا الهدى الذي آتاهم في القرآن واشتروا به الضلال، فما كسبت تجارتهم وما اهتدوا، وصورهم القرآن أبلغ تصوير في حيرتهم ودهشتهم فمثلهم كمثل الذي أراد أن يوقد ناراً ليستدفىء بها ويستضىء، فما اتقدت حتى انطفأت وتركته في ظلام بهيم، لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يبصرون، فهم لم يدركوا نور الهداية حولهم، أو كان مثلهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد أظلمت له الأرض وأرعدت السحب وأبرقت فصاروا يجعلون أصابعهم في آذانهم دهشاً من الصواعق، وهرباً من الموت على تلك الصورة، والله محيط بهم لا يفلتهم، يكاد البرق يأخذ أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا على نوره، وإذا عاد الظلام وقفوا حيث هم، ولو أراد ربك لأصمهم وأعماهم إن الله على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ٢٠٤ - ٢٠٦]، أي: ومنهم من يعجبك قوله في أمور الحياة الدنيا ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح، وهو يتقن الكذب والخداع والتمويه والدهان، ويعلم الله ما في قلبه من شدة الخصومة في الجدال ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أي: أصبح والياً لأمور المسلمين أو بمعنى: أدبر وانصرف، سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد. وقيل أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق، أقبل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وأظهر الإسلام، ثم خرج فمر بزرع فأحرق الزرع وعقر الحمر، فذكر الله أمره إلى قوله ﴿ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ (المصحف المفسر، محمد فريد وجدى ٤٠).

يسرد لنا القرآن موقف المنافقين من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بداية الدعوة في المدينة المنورة، قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة المنافقون، آيات ١ - ٤] أي: كذّب الله ضمائرهم لأنهم كانوا يضمرون النفاق، ويحلفون وقد أعرضوا عن دين الله الذي ابتعث به نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم -، فهم اتخذوا الحلف بالله ستاراً لكى يصدقهم المؤمنون.

ويقرر القرآن أن المنافقين الذين يلبسون رداء الإسلام إنما هم إخوة للكفار، وهم أخطر على الأمة المسلمة من الكفار أنفسهم، حيث قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الحشر، آيات: ١١ - ١٢] أي: يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أُخرجكم محمد من دياركم لنخرجن معكم ولا نطيع أحداً يأمرنا بقتالكم أوخذلكم، وإن قاتلوكم فلنمدنكمُ بنصر منا، والله يشهد إنهم لكاذبون، وإنما كانوا يقولون لهم ذلك تشجيعاً لهم على موقفهم العدائى ضد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضد أصحابه.

ويحذر الله المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء طلباً للمنعة والقوة؛ فعند الله العزة والمنعة والقوة، ويبشرهم بالعذاب الأليم حيث يقول تعالى:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [سورة النساء، آيات: ١٣٨ - ١٤٠].

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء، آية: ٤٦] أي: ينفر المنافقون كراهة من ذكر كلمة ﴿ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ ألا وهى توحيد الربوبية وما يتبعها من تشريع وتلقى من الله وحده، فهذا يهدد وضعهم الاجتماعى.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة الكهف، آية: ٥٧] أي: هؤلاء الذين يستهزؤون بآيات الله ونذره، لا يُرجى منهم أن يفقهوا القرآن، ولا أن ينتفعوا به، لذلك جعل على قلوبهم أغطية تحول دون فهمه، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه، وقدر عليهم الضلال بسبب إعراضهم، فلن يهتدوا إذن أبدا، فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقى، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة الكهف، آيات: ١٠٣ - ١٠٥] إن أشد الناس خسارة هم الذين لم يهتدوا إلى غاية الإيمان والعمل بمقتضياته، وهم لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى، فهم ماضون في هذا السعى الخائب الضال، فمن هم إذن ؟ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة لقمان، الآيتان: ٦، ٧] أي: من الناس من يشترى لهو الكلام بماله، ويشتريه بوقته، ويشتريه بحياته، فهو يبذل تلك الأثمان الغالية في لهو رخيص، يفنى فيه عمره المحدود ويشتريه ليضل عن سبيل الله، فهو جاهل لا يتصرف عن علم، وهو سيئ النية والغاية، يريد ليضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذي ينفق فيه حياته، وهو سيئ الأدب حيث يتخذ سبيل الله هزواً، ويسخر من المنهج الذي رسمه الله للحياة وللناس،

ولذلك فله في الآخرة العذاب الأليم. ويقول الله تعالى عنهم في سورة سبأ الآية: ٥، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾ أي: الذين سعوا باذلين جهدهم للصد عن آيات الله فلهم عذاب أليم في الآخرة.

* * *

شريعة الله موافقة للفطرة

قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢ ﴾ [سورة الروم، آيات: ٢٩ - ٣٢] فالهوى لا ضابط له ولا مقياس، إنما هو شهوة النفس المتقلبة ونزوتها المضطربة، ورغباتها ومخاوفها وآمالها ومطامعها التي لا تستند إلى حق، ولاتقف عند حد، ولا تزن بميزان، وهو الضلال الذي لا يُرجى معه هدى، والشرود الذي لا يُرجى معه توبة، ﴿ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ نتيجة لاتباعه هواه ؟ ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ يمنعونهم من سوء المصير، ثم يتجه الخطاب إلى الرسول ومعه جميع المؤمنين بتوجيه مفصل بإقامة الوجه للدين، ليستقيم على دين الله الثابت المستند على فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو عقيدة واحدة ثابتة، لا تتفرق معها السبل كما تفرق المشركون شيعاً وأحزاباً مع الأهواء والنزوات ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾ واتجه إليه مستقيماً، فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق، ولا تستمد من علم، إنما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل؛ أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه، مستقيماً على نهيه دون سواه، وتربط الآية بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين، وكلاهما من صنع الله، وكلاهما موافق لناموس الوجود، فكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه؛ الله الذي خلق القلب البشرى هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويشفيه من المرض، ويقومه من الانحراف،

وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير، والفطرة ثابتة والدين ثابت ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾، فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة؛ فطرة البشر وفطرة الوجود، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا يعلمون فيتبعون أهواءهم بغير علم، ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم، ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ فهى إذن الإنابة إلى الله والعودة إليه في كل أمر، وهى التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله في السر والعلانية، ويصف القرآن المشركين بأنهم تفرقوا في دينهم وكانوا شيعاً، والشرك ألوان وأنماط كثيرة، بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد، الذي تقوم السماوات والأرض بأمره، وله من في السماوات والأرض كل له قانتون ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الروم، آيات ٢٥ - ٢٦].

* * *

معنى الشرك بالله

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ٢١ - ٢٤]. الشرك إما آلهة يعبدها الناس كما كانوا يعبدونها في الجاهلية الأولى وهو الشرك البين، وإما قيما أو أشخاصاً أو أوضاعاً يجعل الإنسان لها في نفسه شركة مع الله؛ فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده وحكامه وكبراؤه كما يعبد الله أو أخلص عباده، ويحبها كما يحب الله أو أشد حباً ! ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٦٥] وهو الشرك الخفي الذي لا يحسبه الناس شركاً، لأنه لا يأخذ شكل الشرك المعروف والبين، وهومن الشرك في الصميم، وتكون هنا العاقبة هو الضلال عن سبيل الله، فسبيل الله واحد لا يتعدد، وإفراده بالعبادة والتوجه والحب هو وحده الطريق إليه، والعقيدة في الله لا تحتمل شركة في القلب؛ لا تحتمل شركة من مال ولا ولد ولا وطن ولا أرض ولا صديق ولا قريب، فأيما شركة قامت في القلب من هذا وأمثاله فهي اتخاذ أنداد لله، وضلال عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[سورة الرعد، آية: ٣٣] أي: أفمن هو رقيب على كل نفس لايخفى عليه شيء مما كسبت من خير أوشر كمن ليس كذلك، وقد جعل هؤلاء الكفرة لله شركاء، فقل صفوهم لتروا أنه ليس لهم من الصفات ما يستحقون معه أن يُعبدوا، أم تعرفونه بما لا يعرف في الأرض ؟ أم تدّعون أنهم آلهة بظن باطل لا حقيقة له في الباطن ؟ بل زُين للذين كفروا مكرهم فتخيلوا أباطيل ثم خالوها حقاً، ومُنِعوا عن سبيل الحق، ومن يضلله الله فما له من هاد يهديه إلى الصواب.

إن الشرك يقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ومن تأليه غير الله، أو من ربوبية غير الله، فسواء كان الاعتقاد قائماً على تعدد الآلهة؛ أوكان قائماً على توحيد الإله مع تعدد الأرباب - أي: المتسلطين - فهو ينشىء الشرك بكل خصائصه الثانوية الأخرى، ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة وإخلاص الدين لله وإفراده سبحانه بالربوبية أي الحاكمية والسلطان، فالإسلام يدعو إلى وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية، ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة إبراهيم، آية: ٣٠] أي: جعلوا لله أقراناً مماثلين يعبدونهم كعبادته، ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه ويعترفون لهم بما هو من خصائص ألوهيته سبحانه، فجعلوا لله هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله الواحد الذي لا يتعدد ولا تتفرق به السبل، والمقصود أن كبراء القوم عمدوا إلى تضليل قومهم عمداً عن سبيل الله باتخاذ هذه الأنداد من دون الله، فعقيدة التوحيد خطر على سلطان هؤلاء الكبراء ومصالحهم في كل زمان ومكان،

وانحراف الناس عن التوحيد المطلق يسلم قيادتهم إلى كبرائهم، يتنازلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ويتلقون شريعتهم من أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحى الله، عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطراً على الكبراء يتقونه بكل وسيلة.

إن اتخاذ شرائع من عمل البشر تأمر بما لم يأمربه الله وتنهى عما لم ينه عنه؛ فإذا واضعوها في مكان الند لله في النفوس المضللة عن سبيل الله وفى واقع الحياة؛ فقضية الدينونة في واقع الحياة الأرضية هى القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الناس والتى هى مفرق الطريق بين التوحيد والشرك في عالم الواقع، فالألوهية قلما كانت موضع جدال، ولكن قضية الربوبية إما أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣ ﴾ [سورة إبراهيم، آيات: ٢ - ٣] يتوعد الله هؤلاء الكبراء في هذه الآية بالويل من عذاب شديد بسبب أنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، فيتخيلون أنهم لن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض ومن الكسب الحرام ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم، فهم لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله وفى ظل الاستقامة على هداه، ومن ثم فهم يصدون عن سبيل الله، وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها، فعندئذ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يخدعوا وينشروا الفساد، فيتم لهم الحصول عل ما يبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض والكسب الحرام والمتاع المرذول

والكبرياء في الأرض، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار، بينما الذين يوجهون قلوبهم للآخرة لا يخسرون متاع الحياة الدنيا؛ فصلاح الآخرة في الإسلام يقتضى صلاح هذه الدنيا، والإيمان بالله يقتضى حسن الخلافة في الأرض واستعمارها والتمتع بطيباتها، ولكن تعمير الحياة الدنيا يكون بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَـٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة النحل، آيات: ٥١ ـ ٥٥] لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين، إنما هو إله واحد لا ثانى له، ذلك أن القضية الأساسية في العقيدة كلها لا تقوم إلا بها؛ إنما هو إله واحد؛ مالك واحد ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ودائن واحد ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ ﴾ فلا دين إلا دينه، ومنعم واحد ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ وفطرتكم تلجأ إليه وحده في ساعة العسرة والضيق ولا تتوجه إلا إليه دون شريك ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾.

* * *

دعوة الرسل إلى وحدانية الله

لقد جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعه ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [سورة هود، آية: ١] ومضمون هذا الكتاب ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ [سورة هود، آية: ٢]، وهذه الدعوة قالها من قبل كل الرسل من قبل فهى دعوة ثابتة مع مرور الأزمان إلى أن تقوم الساعة.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة هود، آيات: ٢٥ - ٢٦].

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة هود، آية: ٥٠].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة هود، آية: ٦١].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ ﴾ [سورة هود، آية: ٨٤].

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ

إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة نوح، آيات ١ - ٩]. أي: اشتكى نوح - عليه السلام - إلى ربه - عز وجل - مالقى من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة " ألف سنة إلا خمسين عاما "، وما بين لهم ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم لم يسمعوا إلى دعوة نوح لهم بعبادة الله وحده، بل سدوا آذانهم، كما أخبر الله تعالى عن كفار قريش: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [سورة فصلت، آية: ٢٦] وثبتوا على ماهم عليه من الكفر، وتكبروا وتعاظموا عن الإذعان للحق، مع أن نوحاً دعاهم جهد استطاعته؛ فواصل الليل بالنهار، وحاول إقناعهم على وجوه شتى فدعاهم جهاراً وصاح لهم بالإنذار، ودعاهم أيضا سراً.

ولنا أيضا في دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه عبرة.

قال تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الأنبياء، آيات: ٥٢ - ٥٦] فقد استنكر إبراهيم - عليه السلام - على قومه عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وهم بذلك مقلدون لآبائهم، وكل ما يعبد من دون الله فهي كذلك أصنام، فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم؛ إنما تنبع من الإيمان بالله الذي يحرر النفوس من القداسات الوهمية التقليدية والوراثات المتحجرة، وهم متخبطون في تيه الضلالة؛

لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة، أما إبراهيم - عليه السلام - فهو مستيقن واثق عارف بربه قال: ﴿ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ فهو رب واحد؛ رب الناس ورب السماوات والأرض، ربوبيته ناشئة عن كونه الخالق.

قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة لقمان، آيات: ١٣ - ١٧] إن الهدف من عرض وصية لقمان لابنه في القرآن هى دعوة للعالمين بتربية النشئ على عدم الشرك بالله؛ فإن تسوية من لا نعمة إلا منه ومن لا نعمة له أصلاً، ظلم عظيم. وشُكر الإنسان ربه على نعمة إيجاده، وشُكر والديه على تربيته، ثم الوصية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله، وعدم الشرك بالله بمفهوم توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية لله دون سواه، فلا مشرع للناس في حياتهم إلا الله.

قال تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة يوسف، آيات: ٣٧ - ٤٠]، بدأ يوسف - عليه السلام - الدعوة بتوحيد الألوهية والربوبية وهو في أحلك الظروف في السجن، وأكد أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - فهى صورة واضحة للإسلام كاملة دقيقة شاملة - كما جاء بها رسل الله جميعاً - من ناحية أصول العقيدة، فهى تحتوى على الإيمان بالله والإيمان بالبعث وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلاً، ومعرفة الله سبحانه وتعالى بصفاته؛ الواحد القهار والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلاً، ومن ثم نفى الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد وإعلان السلطان والحكم لله وحده، ومادام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره، وتحديد معنى " العباده " بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية؛ ربوبية الله وحده، وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه بالعباده، أي: إفراده بالحكم فهما مترادفان أو متلازمان ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾، ثم أن يوسف - عليه السلام - استمر في دعوته للإسلام على هذا النحوالواضح الكامل والدقيق الشامل عندما سيطر على مقاليد الأمور في مصر، وانتشر الإسلام في مصر وفى البقاع المجاورة ممن كانت وفودها تأتى لتقتات مما تم ادخاره بحكمته وتدبيره.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ ﴾ [سورة طه، آيات: ٢٥ - ٢٦] طلب موسى - عليه السلام - من ربه وهو ذاهب إلى فرعون وملئه - ليدعوه إلى الله - أن يشرح له صدره، فانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة ويجعل عناءه لذة، ويجعله واقعاً للحياة؛ لا عبئاً يثقل خطى الحياة، وطلب من ربه أن ييسر له أمره، وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح، وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير ؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول ! كما طلب أن يحل عقدة لسانه ليفقهوا قوله، لم يرد الكريم سائله موسى - عليه السلام - ولم يبطىء عليه الإجابة الكاملة حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [سورة طه، آية ٣٦].

وكان اللين هو أسلوب دعوة موسى، فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان، فلا ييأس الداعي من هداية من يدعوه لعله يتذكر ويخشى، قال تعالى: ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨ ﴾ [سورة طه، آيات: ٤٢ - ٤٨] ونأخذ من قصة موسى العبرة أيضاً من انتصار الحق والإيمان على الباطل، ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

إنها الطمأنينة ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾... إنه القوى الجبار الكبير المتعال؛ إنه الله القاهر فوق عباده ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ وقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف، وانتصار الإيمان في قلوبهم على الترغيب والترهيب من فرعون. إذن يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلى بها الباطل، وإذا ظل الإيمان مظهراً لم يتجسم في القلب، وإذا ظل الحق شعاراً لا ينبع من الضمير فإن الطغيان والباطل قد يغلبان لأنهما يملكان القوة المادية.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[سورة طه، آية: ٥٠] ويُذكر الداعية إلى الله الناس بفضل ربهم عليهم، ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها، أي: هدى كل مخلوق لطرق معيشته ووسائل بقائه.

قال تعالى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة طه، آية: ٨٠] فالتوبة ليست كلمة تقال، وإنما هى عزيمة في القلب يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح، ويتجلى أثرها في السلوك العملى في عالم الواقع، فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان، وصدق العمل، فهنا يأخذ الإنسان في الطريق على هدى من الإيمان، وعلى ضمانة من العمل الصالح، فالاهتداء هنا هو ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل.

ثم يسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على نفس منهج الرسل قبله في طريق الدعوة إلى الله ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة يوسف، آية: ١٠٨] أي: هذه طريقتى أدعو إلى الله على بينة واضحة أنا ومن اتبعنى، وسبحان الله، وما أنا من المشركين.

قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الشورى، آيات: ١٣ - ١٥] أي: شرع لكم أيها الناس من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من الرسل، وهذا الأصل المشترك بين جميع الأديان هو أن اجعلوا الدين قائماً لا مهملاً، ولا تختلفوا فيه مذاهب شتى لأنه لا يحتمل الخلاف لبساطته. عظُم على المشركين ما تدعوهم إليه من هذا الأمر، فالله يصطفى لنفسه من يشاء ويهدى إلى الحق من يُقبل إليه، وما تفرقت الأمم السابقة إلا من بعد ما حصلوا على وسائل العلم تعادياً بينهم، ولولا وعد سبق من ربك بتأخير حسابهم ليوم القيامة لقُضِي بينهم باستئصال المبطلين، وإن الذين ورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه موقع في الحيرة؛ فلذلك فادع يا محمد إلى الاتفاق على هذا الأصل المشترك بين الأديان كافة، واستقم على الدعوة كما أمرك الله، ولا تتبع أهواءهم وأوهامهم، وقل آمنت بكل كتاب أنزله

الله إجمالاً، وأمرنى ربى أن أعدل بينكم فلا أحابى طائفة ولا جنساً، الله ربنا وربكم، لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، لا محل للخصومة بيننا بعد ظهور الحق سوى ما يزينه العناد والشقاق، والله يجمع بيننا وإليه المآل. ولا يخفى أن هذا التوجيه يستهدف أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من خلال رسولها الخاتم.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة فصلت، آيات ٣٣ - ٣٦]. أي: ومن أحسن مذهباً وأقوم سبيلاً ممن دعا إلى عبادة الله وعمل هو نفسه عملاً صالحاً وقال معلناً إننى من المسلمين، ولا تستوى الفعلة الحسنة ولا الفعلة السيئة، فإذا اعترضتك سيئة فادفعها بحسنة فذلك أفعل في دفعها وتجعل الذي بينك وبينه عداوة كأنه صديق حميم، وهذه الحكمة لا يوفق إليها إلا الصابرون ولا يعطاها إلا كل ذى حظ من السعادة عظيم. وإن يصبك من الشيطان وسوسة فاستجر بالله إنه سميع لاستعاذتك، عليم بنيتك أو بطريق إصلاحك.

* * *

الحذر في الدعوة من الركون إلى ذوى السلطان والإغضاء عن شيء من مقتضيات الشرع

قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء، آية: ٣] حزن رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - حزناً شديداً على قومه لعدم إيمانهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[سورة الحج، آيات: ٥٢ - ٥٤] قد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوة إلى تحكيم شرع الله والعمل بالقرآن والرغبة الملحة في انتشار الدعوة وانتصارها؛ تدفعهم إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء في أول الأمر عن شيء من مقتضيات الشرع؛ يحسبونه هم ليس أصيلاً ولكنه فرعٌ مجاراة لهم في بعض أمرهم كي لا ينفروا من الشريعة ويخاصموها، ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة، وذلك حرصاً على سرعة انتصار الدعوة. بينما مصلحة الدعوة الحقيقية في استقامتها على المنهج دون انحراف قليل أو كثير، أما النتائج فهى غيب لا يعلمه إلا الله وستكون خيراً في نهاية المطاف، وها هو ذا القرآن ينبههم إلى أن الشيطان يتربص بأمانيهم تلك لينفذ منها إلى صميم الدعوة، وإذا كان الله قد عصم الأنبياء فلم يُمَكِن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم،

فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصرة الدعوة والحرص على ما يسمونه " مصلحة الدعوة ".

قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الفرقان، آيات: ٤٣ - ٤٤] وفي هذا تطييب لخاطر الرسول وأصحاب الدعوة من مرارة الإخفاق في هداية من لم يهتد بهذا القرآن وخضع لهواه وتحكمت فيه شهواته، فهو غير قابل للهدى فلا يُحفَل بشأنه وأمره موكول إلى الله، فهم لا يسمعون لهذا القرآن ولم يتدبروا آياته، وهم كالبهائم؛ بل هم أبشع حالاً، لأن البهائم تهتدي إلى مراعيها، وتنقاد لأربابها وتعرف من يُحسن إليها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم. بينما على الجانب الآخر يقول الله - تعالى - عن عباد الرحمن الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [سورة الفرقان، آية: ٧٣] أي: أن من أوصافهم إذا وُعظوا بآيات القرآن لم يُعرضوا عنها بل يسمعوا بآذان واعية وقلوب وجلة فينتفعوا بها ويهتدوا.

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[سورة الروم، آية: ٦٠] وفيها توجيه للرسول ومن تبعه من المؤمنين بالصبر، فالصبر وسيلة المؤمنين في طريق الدعوة، والثقة بوعد الله الحق، والثبات بلا قلق ولا حيرة ولا شكوك، وذلك بالرغم من اضطراب الآخرين ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله.

* * *

عبء أمانة الدعوة

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾[سورة الأحزاب، آيات: ٧٢ - ٧٣] تكشف الآيات عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية وعلى عاتق الأمة المسلمة - بصفة خاصة - وهى التي تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى؛ أمانة العقيدة والإستقامة عليها والدعوة والصبر على تكاليفها، وأمانة الشريعة والقيام على تنفيذها في أنفسهم وفى المجتمع من حولهم، وإنها لمخاطرة أن تأخذ على عاتقها هذه التبعة الثقيلة، فمعروف ضعف النفس البشرية التي تناوشها الشهوات والنزعات والميول والأطماع، فحين تنهض بالتبعة فإنها تصل حقاً إلى مقام كريم، فقاعدة الإسلام هى الاستسلام لمشيئة الله وقدره، والاستعداد ابتداءً لطاعة أمره ونهيه، واتباع المنهج الذي يقرره في كتابه دون الالتفات إلى أي توجيه بشرى آخر، ودون الاعتماد كذلك على سواه؛ هذه هى القاعدة التي تقوم عليها الشرائع والقوانين والتقاليد والأوضاع والآداب والأخلاق بوصفها الترجمة العملية لمقتضيات عقيدة الإسلام الثابتة في الضمير، والآثار الواقعية لاستسلام النفس لله والسير على منهجه في الحياة.

إن الإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة، ويقوم على هذه الشريعة نظام، وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هى الإسلام، ومن ثم كان التوجيه الأول في سورة الأحزاب التي تتولى تنظيم الحياة الاجتماعية للمسلمين بتشريعات وأوضاع جديدة هو التوجيه إلى تقوى الله، فتقوى الله والشعور بمراقبته واستشعار جلاله هى القاعدة الأولى، وهى الحارس القائم في أعماق الضمير على التشريع

والتنفيذ، وهى التي يناط بها كل تكليف في الإسلام وكل توجيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ١] وكان التوجيه الثانى هو النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين واتباع توجيهاتهم أو اقتراحاتهم والخضوع لدفعهم وضغطهم، فليحذر المؤمنون أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين في أمر العقيدة وأمر التشريع وأمر التنظيم الاجتماعى، ليبقى منهجهم خالصاً لله، غير مشوب بتوجيه من سواه، فالله هو الذي اختار للمؤمنين منهجهم وفق علمه وحكمته، والتوجيه الثالث المباشر ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٢] فهذه هى الجهة التي تأتى منها التوجيهات وهو المصدر الوحيد للتشريع، والتوجيه الأخير ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٣] فلا يهمنَك أكانوا معك أم كانوا عليك، ولا تحفل كيدهم ومكرهم، وتختم هذه التوجيهات ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٤] أي: أنه قلب واحد، فلابد له من منهج واحد يسير عليه، ومن ثم فهو منهج واحد وطريق واحد ووحى واحد واتجاه واحد وهو الاستسلام لله وحده؛ فالقلب الواحد لا يعبد إلهين ولا يخدم سيدين، ولا ينهج نهجين، ولا يتجه اتجاهين.

* * *

مصدر الكتب السماوية واحد

مصدر الكتب السماوية واحد وأصل رسالتها التي دعا إليها جميع الأنبياء واحد وهى رسالة التوحيد. والكتب المنزلة على جميع الانبياء متحدة في الغاية والهدف بدليل قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٨٥] وقوله تعالى ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [سورة آل عمران، آيات: ٣ - ٤] فالكتب متعددة والأصل واحد والغاية واحدة.

قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ۝٢١٣ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢١٣]. كان الناس أمة واحدة على دين الفطرة وشريعة الحق، ثم اختلفوا في التصورات والعقائد بفعل وسوسة الشيطان لهم، فأرسل الله إليهم الرسل ومعهم الكتاب ليحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه؛ فهو المرجع الوحيد عند الاختلاف. إذن فهو كتاب واحد في الأصل جاء به الرسل جميعاً يدعو إلى التوحيد؛ إله واحد، ورب واحد ومعبود واحد ومشرع واحد للناس، ولكن يقع الانحراف عقب كل رساله، وتتراكم الخرافات والبدع حتى يبعد الناس عن الأصل الكبير وهو التوحيد، وهنا تأتى رسالة جديدة تجدد الإيمان بالله الواحد الأحد، وتنفى ما علق بالتوحيد من انحرافات، وهذا الثبات في أصل التصور الإيمانى هو الذي يتفق مع وظيفة الكتاب

الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه في كل زمان، ومع كل رسول منذ أقدم الأزمان، وهذا الميزان من صنع حاكم عدل لا يتأثر بالهوى الإنساني، وهو - سبحانه وتعالى - الحق العدل، ولا يتأثر بالضعف الإنساني، فإقامة ذلك العدل تقتضي علماً غير محدود؛ علم ما كان وما سيكون وما هو كائن؛ علم بخفايا النفس البشرية وحاجاتها وما يصلح حال المجتمع، فهو لا يخفى عليه شيء في ملكه، فما كان متفقاً مع الكتاب فهو الصواب، وما اختلف عنه فهو الانحراف والخلل في الحياة، والبغي والهوى هو الذي يقود الناس إلى الاختلاف على كتاب الله والتفرق والتشرزم، والتصور الإيماني الصحيح الذي يتمسك به المسلم هو الذي يحميه من الاختلاف في أصل الكتاب، فشريعتنا من عقيدتنا. يهدي الله المؤمنين إلى الحق وإلى الصراط المستقيم الذي يكشف عنه ذلك الكتاب. إذن فالله وحده هو صاحب الحق في وضع هذا المنهج وهذه التشريعات، فهو أعلم بمصالح البشر وفطرتهم، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ ﴾ [سورة آل عمران، آيات: ١ - ٥] أي: أنزل عليك يا محمد القرآن مصدقاً لما سبقه من الكتب هداية للناس. وذكر الله الأنبياء كلهم من نوح ماراً بإبراهيم وذريته من الأنبياء؛ آتاهم الله الكتاب، والعلم النافع واصطفاهم لحمل رسالته وهداهم إلى صراط مستقيم، أي إلى طريق غير معوج وهو الإسلام الذي ارتضاه الله لأنبيائه وعباده حيث

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ

وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام، آيات: ٨٣ - ٩٠] وهنا يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: نجزى المحسنين جزاء مثل ما جزينا إبراهيم برفع درجاته وإكثار أولاده، وهدايتهم إلى طريق مستقيم. ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعنى: كفار قريش وكل من على شاكلتهم في كل زمان ومكان: ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ إشارة إلى الأنصار وكل من آمن مثلهم ونصر دين الله وعمل بكتابه، ثم يوجه رسوله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ أي: اتباع أثر رسله، ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٦١] أي: هداه ربه إلى طريق مستقيم وهو دين الإسلام؛ ملة إبراهيم المائل عن العقائد الباطلة. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ

لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ١٢٧ - ١٣٤] و قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران، آية: ١٩].

قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الشورى، آية: ١٣] أي: شرع لكم ربكم من الدين الذي أرسل به محمداً - صلى الله عليه وسلم - ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى أن يعملوا به على ما شرع لكم وفرض. ولا تختلفوا فيه (المصحف المفسر للإمام الطبرى ٤٨٤).
قال مجاهد: أوحيناك يامحمد وإياهم ديناً واحداً و قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة المؤمنون، آيات: ٥٢، ٥٣] يعنى: ملة الإسلام ملتكم
﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾ أي: المشركين واليهود والنصارى، وقال تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [سورة المائدة، آية: ٤٨] قال ابن عباس: سبيلاً وسنة، وقال تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ [سورة الحج، آية: ٦٧] يعنى: شريعة هم عاملون بها. " إن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج؛ تفصيل ذلك أنه أجمع الأنبياء عليهم السلام على توحيد الله تعالى عبادة واستعانة، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه، وتحريم الإلحاد

في أسمائه، وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيماً لا يشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله، وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها، وأن لله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده، ويفرض طاعة على الناس، وأن القيامة حق والبعث بعد الموت حق والجنة حق والنار حق، وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج، والتقرب إلى الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر، وتلاوة الكتاب المنزل من الله، وكذلك أجمعوا على النكاح وتحريم السفاح وإقامة العدل بين الناس وتحريم المظالم، وإقامة الحدود على أهل المعاصي، والجهاد مع أعداء الله، والاجتهاد في إشاعة أمر الله ودينه. فهذا أصل الدين، ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن هذه الأشياء إلا ما شاء الله فإنها كانت مُسلّمة فيمن نزل القرآن على ألسنتهم، وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباهها، فكان في شريعة موسى - عليه السلام - الاستقبال في الصلاة إلى بيت المقدس، وفى شريعة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى الكعبة، وكان في شريعة موسى - عليه السلام - الرجم فقط، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره، وكان في شريعة موسى - عليه السلام - القصاص فقط وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعاً، وعلى ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات، وآدابها وأركانها، وبالجملة فالأوضاع الخاصة التي مهدت وبينت بها أنواع البر والارتفاقات هى الشرعة والمنهاج " (باب بيان أن أصل الدين واحد والشرائع والمناهج مختلفة - كتاب حجة الله البالغة ٨٦ / ١).

فحقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعاً واحدة لا تتبدل على مدار الزمـان وتعـدد الرسـالات.

" قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة المؤمنون، آيات: ٥١ - ٥٢].

قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الزمر، آيات: ١ - ٢] أي: أُنزل الكتاب من الله العزيز الحكيم على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ليقرر ويؤكد قضية توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين له، وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره، وأساس الحق الذي نزل به الكتاب هو الوحدانية المطلقة التي يقوم عليها الوجود، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الزمر، آية: ٥] فهو الحق الواحد الذي قامت به السماوات والأرض وأنزل به الكتاب، وكلاهما صادر من مصدر واحد، وكلاهما آية على على وحدة المبدع العزيز الحكيم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة فاطر، آيات: ٣١ - ٣٢] أي: والذى أوحيناه إليك يامحمد من الكتاب المنزل هو الحق الذي لاشك فيه مصدقاً لما سبقه من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور، وهو - جل وعلا - خبير بعباده، محيط ببواطن أمورهم وخواطرها، بصير بهم لا تخفى عليه خافية من شؤونهم، ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي: ثم أورثنا هذا القرآن العظيم لأفضل الأمم؛ وهى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -

الذين اخترناهم على سائر الأمم وخصصناهم بهذا الفضل العظيم؛ القرآن المعجز خاتمة الكتب السماوية، قال الزمخشرى: والذين اصطفاهم الله هم أمة محمد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة (الكشاف ٣ / ٤٨٤) ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف فقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب من هو مقصر في عمل الخير؛ يتلو القرآن ولا يعمل به وهو ظالم لنفسه، ومنهم من هو متوسط في فعل الخيرات والصالحات؛ يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات، ويقصر في بعض الفترات وهو المقتصد، ومنهم من هو سبَّاق في العمل بكتاب الله، يستبق الخيرات وقد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره وهو السابق بالخيرات بإذن الله ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي: ذلك الإرث والاصطفاء لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - لحمل أشرف الرسالات والكتب الساوية هو الفضل الكبير الذي لا يدانيه فضل ولا شرف، فقد تفضل الله عليهم بهذا القرآن المجيد الباقى مدى الدهر، وأنعِم به من فضل !.

قال تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾ [سورة يس، آيات: ١ - ٥]، أقسم الله - تعالى - بهذا الكتاب المحكم المعجز في نظمه وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة على أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسوله، وأنه من المرسلين من رب العالمين لهداية الخلق؛ على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج وهو الإسلام؛ دين الرسل قبله الذين جاؤوا بالإيمان والتوحيد. قال الطبرى: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام كما قال قتادة (تفسير الطبرى ٢٢/ ٩٧)، ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي: هذا القرآن الهادى المنير، تنزيل من رب العزة - جل وعلا -، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه.

قال تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ ﴾ [سورة الشورى، آيات: ٣ - ٤] يقرر الله هنا وحدة الوحى فهو الموحى بجميع الرسالات لجميع الرسل، وأن رسالة الإسلام هى امتداد لهذا الوحى، ويُعرف بنى البشر أنه هو المالك الوحيد لما في السماوات والأرض، وهو وحده العلى العظيم. وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة يونس، آية: ٣٧].

* * *

الوفاء بالعهود والحكم بكتاب الله

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥ ﴾ [سورة الرعد، آيات: ٢٠ - ٢٥]، وعهد الله مطلق يشمل كل عهد، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق، والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان، وعهد الإيمان قديم وجديد، قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله، وأنه وحده المعبود، وهو الميثاق المأخوذ على الذرية في ظهور بنى آدم، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٧٢] ثم هو جديد مع الرسل الذين بعثهم الله؛ لا لينشئوا عهد الإيمان، ولكن ليجددوه، ويُذكِروا به ويفصلوه ويبينوا مقتضياته من الدينونة لله وحده والبراءة من الدينونة لسواه، مع العمل الصالح والسلوك القويم، والتوجه به إلى الله وحده صاحب الميثاق. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ ﴾ [سورة الأحزاب، آيات: ٧ - ٨]

أي: إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح - عليه السلام - إلى خاتم النبيين محمد - صلى الله عليه وسلم - ومنهج واحد، وأمانة واحدة، يتسلمها كل منهم حتى يسلمها وقد عمم النص أولاً: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ ﴾ ثم خصص صاحب القرآن، وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين ﴿ وَمِنكَ ﴾ ثم عاد إلى أولى العزم من الرسل وهم أصحاب أكبر الرسالات قبل الرسالة الأخيرة ﴿ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ وبعد بيان أصحاب الميثاق، عاد إلى وصف الميثاق نفسه ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ فهو ميثاق غليظ متين؛ ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده ليتلقوا وحيه، ويبلغوا عنه، ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ والصادقون هم المؤمنون، أما غير الصادقين فهم الذين دانوا بعقيدة الباطل.

ويترتب على العهد الإلهى والميثاق الربانى كل العهود والمواثيق مع البشر سواء مع الرسول أومع الناس، ذوى القرابة أو أجانب؛ أفراداً أم جماعات، فالذى يرعى العهد الأول، يرعى سائر العهود، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [سورة المائدة، آية: ١] أي: كل العقود، قضية العقيدة أولاً ألا وهى إله واحد، خالق واحد، مالك واحد؛ ومن ثم فحاكم واحد ومشرع واحد، وإذن فشريعة واحدة، ومنهج واحد وقانون واحد؛ إذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله، فهذا هو الإيمان والإسلام. وكل هذه العهود والمواثيق تُبنى على العهد الأول وهو الإيمان بالله الواحد. رعاية العهود فريضة، والذى ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدى كل ما هو مطلوب منه للناس، لأن هذا داخل في تكاليف الميثاق، فهى القاعدة الضخمة الأولى التي تقوم عليها بنيان الحياة كله.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾، ثم إنهم يصبرون على تكاليف الميثاق من عمل ودعوة واجتهاد، وصبر على النعماء والبأساء، كل ذلك ابتغاء وجه الله، وفي المقابل ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أي: أنهم ينقضون عهد الله المأخوذ على الفطرة في صورة الناموس الأزلي، وينقضون من بعده كل عهد، فمتى نُقض العهد الأول، فكل عهد قائم عليه منقوص من الأساس، والذي لا يرعى الله لا يُبقى على عهد ولا ميثاق، قال تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة النحل، آية: ٩١] فالوفاء بعهد الله كما قلنا يشمل كل عهد على معروف يأمر به الله، والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع، والآية تحذر المتعاهدين أن ينقضوا الإيمان بعد توكيدها، وقد جعلوا الله كفيلاً عليهم وأشهدوه عهدهم.

إذن يترتب على عهد الإيمان طاعة واتباع وحكم بما أنزل الله كما أسلفنا، أما الحكم بغير ما أنزل الله فهو كفر وظلم وفسوق وهذا هو الدين، ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله -سبحانه - ورفضهم لإفراده - سبحانه - بهذه الألوهية؛ يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم؛ ولو لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم وقد أخذ الله الميثاق من العباد جميعاً عليه،

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ

سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة المائدة، آيات: ١٢ - ١٦] **فياأهل الكتاب قد جاءكم** رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الآيات كنعت الرسول، وبشارة عيسى به، ويعفو عن كثير من جرائمكم فلا يؤاخذكم بها، فقد جاءكم من الله بهذا القرآن نور يهدى به الله من اتبع رضوانه بالإيمان به طرق السلام ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ويهديهم إلى صراط مستقيم.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم

بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة المائدة، آيات ٤١ - ٥٠] في هذه الآيات يخبر القرآن عن حال المنافقين واليهود بتحريفهم لكلام الله، أو بحمله على غير المراد منه أو إهماله ويوجه رسول الله بتخييره بالحكم بينهم أو الإعراض عنهم إن تحاكموا إليه في شيء، روى أن هذه الآيات نزلت في قوم من اليهود ارتكبوا جرائم - تختلف الروايات في تحديدها - منها الزنا ومنها السرقة...

وهى من جرائم الحدود في التوراة؛ ولكن القوم كانوا قد اصطلحوا على غيرها؛ لأنهم لم يريدوا أن يطبقوها على الشرفاء فيهم في مبدأ الأمر. ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع، وأحلوا محلها عقوبات أخرى من عقوبات التعازير، فلما وقعت منهم هذه الجرائم في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تآمروا على أن يستفتوه فيها... فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيرية المخففة عملوا بها، وكانت هذه حجة لهم عند الله... فقد أفتاهم بها رسول !... وإن حكم فيها بمثل ما عندهم في التوراة لم يأخذوا بحكمه.. ومن هنا قولهم: ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾ (ظلال القرآن ٨٩٢). ويوجه الله رسوله أن يحكم بينهم بالعدل إذا جاءوه يطلبون حكمه واختار أن يحكم بينهم. وهذا التخيير في أمر هؤلاء اليهود يدل على أن نزول هذا الحكم في وقت مبكر. إذ أنه بعد ذلك أصبح الحكم والتقاضى لشريعة الإسلام حتمياً. فدار الإسلام لا تطبق فيها إلا شريعة الله. وأهلها جميعاً ملزمون بالتحاكم إلى هذه الشريعة. مع اعتبار المبدأ الإسلامى الخاص بأهل الكتاب في المجتمع المسلم في دار الإسلام؛ وهو ألا يجبروا إلا على ما هو وارد في شريعتهم من الأحكام؛ وعلى ما يختص بالنظام العام. فيباح لهم ما هو مباح في شرائعهم، كامتلاك الخنزير وأكله، وتملك الخمر وشربه دون بيعه للمسلم. ويحرم عليهم التعامل الربوى لأنه محرم عندهم. وتوقع عليهم حدود الزنا والسرقة لأنها واردة في كتابهم وهكذا. كما توقع عليهم عقوبات الخروج على النظام العام والإفساد في الأرض كالمسلمين سواء، لأن هذا ضرورى لأمن دار الإسلام وأهلها جميعاً: مسلمين وغير مسلمين. فلا يُتسامح فيها مع أحد من أهل دار الإسلام (ظلال القرآن ٨٩٤).

قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝ ﴾ [سورة الشورى، آية: ١٠] أي: الجهة التي يُرجع إليها عند كل اختلاف هى هذا الكتاب الذي جاء من عند الله يتضمن حكم الله. كى لا يكون للهوى المتقلب أثر في الحياة بعد هذا المنهج الإلهى القويم. فهذا المنهج الذي اختاره الله للناس في حياتهم الفردية والجماعية وفى نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم وأخلاقهم وسلوكهم، وبين لهم هذا كله بياناً شافياً، وجعل هذا القرآن دستوراً شاملاً لحياة البشر، أوسع من دساتير الحكم وأشمل، وقد جاءت هذه الآية بعد أن جاء في مطلع السورة: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الآية: ٥] فكانت هذه إشارة إجمالية إلى وحدة المصدر، ووحدة المنهج، ووحدة الاتجاه، ثم يُفصِل هذه الإشارة ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو - في عمومه - ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وهو أن يقيموا دين الله الواحد، ولا يتفرقوا فيه،: " قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ۝ ﴾ [سورة الشورى، آية: ١٣] فلذلك تم توجيه الأمر الإلهى إلى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وإلى المسلمين إلى الدعوة والاستقامة على دين الله، وعدم الالتفات إلى الأهواء المصطرعة من حولهم، ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى، آية: ١٥] وأن يعلن تجديد الإيمان بالدعوة الواحدة التي شرعها الله للنبيين جميعاً، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ ﴾ [سورة الجاثية، آية: ١٨].

قال تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ ﴾ [سورة الأعراف، آيات: ٢ - ٣] أي: لتنذر به المؤمنين من اتباع غير ما أنزل الله. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [سورة النساء، آية: ٥٩]. ويحذرنا الله إذا لم نتبع شرع الله ولم نعمل بكتابه من موقف يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ ﴾ [سورة الأعراف، آيات: ٥١ - ٥٢].

* * *

موقف أهل الكتاب من الحكم بكتاب الله

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران، آيات: ٢٣ - ٢٤] يقول الله - تعالى - منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتبهم، وهما التوراة والإنجيل؛ وإذا دُعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم بـه من اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - تولوا وهم معرضون، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أي: إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم لن يُعذبوا في النار إلا أياماً معدودات ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل. ونحن نرى أن هذه الآية عامة في أهل الكتاب وفى غيرهم من المسلمين الذين يرفضون التحاكم إلى كتاب الله، لأن من يأخذ بأمثال هذه الترهات يستخف بحدود دين الله ويتعرض لسخط الله بدليل الآية التالية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران، آية: ٢٥] والتعجيب من هؤلاء أنهم إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم، وفى شؤون حياتهم ومعاشهم فإنهم لا يستجيبون لهذه الدعوة؛ إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأى نصيب من كتاب الله. تذكر التفاسير: أن جماعة من اليهود انكروا حكم النبى بكتاب الله، واختلفوا في سبب نزولها، فقال السدى: دعا النبى صلى الله عليه وسلم اليهود للإسلام، فقال له النعمان بن أدفى: هلم يامحمد نخاصمك إلى الأحبار. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(بل إلى كتاب الله) فقال: بل إلى

ألأحبار. فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال الكلبى: نزلت في قصة اللذين زنيا من خيبر وسؤال اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم عن حد الزانيين، فحكم فيهما بالرجم، فعارضوه، فأحالهم إلى التوراة، فوجدوها تأمر بالرجم فرجما، فغضب جماعة من اليهود من ذلك لأنهم قالوا أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون. (المصحف المفسر للطبرى ٦٨).

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة آل عمران، آيات: ٧٨ - ٨٣] وهنا يوضح الكتاب كِذب أهل الكتاب على كتاب الله، فهو كتاب واحد منزل من عند الله. وقد أخذ الله ميثاق النبيين كلهم بتصديق خاتم النبيين محمد - صلى الله عليه وسلم - ونصرته، فمن أعرض بعد أخذ العهد من أتباع النبيين بالإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فأولئك هم الكفرة المتمردون.

قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة المائدة، آيات: ٤٩ - ٥٠] وفي هذه الآيات نرى توجيه الله للذين آمنوا ألا يطيعوا المشركين ولا ينقادوا لهم، ولا يتلقوا عنهم وعدم اقتباس مناهجهم وأوضاعهم، وأن يأخذوا من كتاب الله، ففيه النجاة والهدى، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [سورة آل عمران، الآيتان: ١٠٠، ١٠١].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة النساء، آيات: ٤٤ - ٤٥].

يخبر الله تعالى عن اليهود، عليهم لعنات الله المتتابعة إلى يوم القيامة؛ أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ويريدون أن تضلوا السبيل، أي: يودون لو تكفرون بما أُنزل عليكم أيها المؤمنون، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، ويحذركم الله منهم، وكفى به ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره.

* * *

موقف المنافقين من الحكم بكتاب الله

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة النساء، آيات: ٦٠ - ٦٥] أي من الناس فريق منافقون يظهرون الإسلام، ولا يتأدبون بأدب الإسلام، فهم يخالفون حين يدعون ليتحاكموا إلى الله ورسوله على شريعة الله التي جاء بها، فحكم الله ورسوله لا يحيد عن الحق، ولا ينحرف مع الهوى، ولا يتأثر بالمودة والشنآن، فهم لا يقبلون أن تقضى بينهم شريعة الله، ولا أن يحكم فيهم قانونه، إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف، لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً، وكل خلقه أمامه سواء، فلا يظلم أحداً منهم لمصلحة أحد، فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم؛ أفراداً كانوا أم طبقة أم دولة، أما المؤمنون فهم واثقون ثقة مطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم، وما عداه هو الهوى، ولذلك فهم المفلحون لأن الله هو الذي يدبر أمورهم وينظم علاقاتهم، ويحكم بينهم بعلمه وعدله.

و قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة النور، آيات: ٤٧ - ٥١].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الأحزاب، آيات: ١ - ٤] تبدأ سورة الأحزاب بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم - ومن باب أولى المسلمين عامة - إلى تقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما يُوحى إليه ربه؛ أي: اتباع المنهج الذي اختاره الله للناس، والتوكل عليه وحده، والاطمئنان إلى حمايته ونصرته، وبعد ذلك يلقى بكلمة الحق والفصل في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية السائدة قبل الإسلام وهو موضوع الظهار وموضوع التبنى، ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ يُرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد، وإلا نافق، واضطربت خطاه، ومادام لا يملك إلا قلباً واحداً، فلابد أن يتجه إلى إله واحد، وأن يتبع نهجاً واحداً، وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات، ويحذر الله المؤمنين من الوقوع في النفاق، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [سورة النساء، آيات: ١٣٦ - ١٤٣].

* * *

موقف بنى إسرائيل من التوراة والقرآن

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ٨٥ - ٩١] **يمضى** القرآن مع التاريخ بعد آدم، فيُذكِر المسلمين بأحوال بنى إسرائيل، ليحذرهم أن يأخذوا من الكتاب ما يوافق هواهم فيقول تعالى:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ

وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ولقد أنزل الله على موسى التوراة، وأرسل بعده رسلاً إلى أمم كثيرة حتى جاء عيسى ابن مريم، وأيده الله بآيات واضحات على صدق رسالته، فكلما جاء رسول لبني إسرائيل استكبروا عن اتباعه واتبعوا أهواءهم، فكذبوا بعض أنبيائهم وقتلوا بعضهم. ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ أي: ولما جاءهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم للإيمان بالله؛ الذي دعاهم إليه كل الرسل السابقين قالوا: إن قلوبهم مغلقة لا تصلح لإدراك ما يقول فرد الله عليهم دعواهم، وأكد لهم أن قلوبهم ليست مغلقة، ولكن الله أبعدهم عن قبول الخير بسبب علمه بكفرهم، ولما جاءهم القرآن من عند الله مصدقاً للتوراة التي درسوها وموافقاً لها، وكانوا قبل نزول القرآن يطلبون النصر على أعدائهم بحرمة النبي المنتظر الذي كانوا يتوقعون مبعثه، ويمنون أنفسهم بالمبادرة إلى اتباعه، فلما جاءهم، وفيه العلامات التي عرفوها من كتبهم قابلوه بالكفر والعناد:

الله تعالى لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ٩٩ - ١٠٠] وفى هذا بيان وإنذار للبشر عامة إلى قيام الساعة بما أوحى الله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من آيات واضحات، وما يكفر بها إلا الخوارج والمعاندون.

قال تعالى: ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [سورة الرعد، آية: ١] أي: آيات هذا القرآن تدل على أنها وحى من عند الله، وتلك الأحرف أيضاً ﴿ الٓمٓر ﴾ آيات تدل على أن هذا القرآن من صنع الله الذي أتقن كل شيءٍ خلقه. إذ أن صياغته من مثل هذه الأحرف ليست من عمل مخلوق كائناً من كان. وهذا الكتاب متلبس بالحق؛ الحق وحده؛ الحق الخالص الذي لا يلتبس بالباطل، والذى لا يحتمل الشك والتردد ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يؤمنون بأنه موحى به، ولا بالقضايا المترتبة على الإيمان بهذا الوحى من توحيد الله، ودينونة له وحده، ومن عمل به في الدنيا وإيمان بالبعث.

* * *

تلقى المؤمنين والمنافقين للقرآن

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة هود، آية: ١٧] أي: أفمن كان مؤسساً دينه على دليل من ربه، ويتبع هذا الدليل شاهد منه أي: القرآن، ومن قبله شاهد آخر يؤيده وهو التوراة؛ إماماً لطائفة كبيرة من الناس ورحمة لهم، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى من كان على بينة من ربه ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بالقرآن، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده، ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: فلا تك في شك من هذا القرآن؛ إنه الحق من ربك ولكن أكثرالناس لا يؤمنون، لقصر نظرهم وقصور إدراكهم، وما شك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا كل من آمن به وتبعه من المؤمنين، وهم على بينة من ربهم، ولكن هذا التوجيه القرآنى يشى بما كان يخالج نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين من ضيق وتعب ووحشة من جراء كثرة المعاندين؛ تحتاج كلها إلى التسرية عنه وعنهم بهذا التوجيه وهذا التثبيت، وما أحوج الداعين إلى ربهم وهم يواجهون مثل تلك الحال في كل زمان ومكان حيث يتآزر عليهم الصد والإعراض والسخرية والاستهزاء؛ فما أحوجهم إلى تدبر هذه الآية، وما أحوجهم إلى اليقين الذي يحمله التوكيد الربانى الحكيم ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾. أما المنافقون فيقول الله تعالى عنهم: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [سورة هود، آية: ٥] فيصور القرآن كيف يتلقى المنافقون آيات القرآن عندما يتلى عليهم؛ وهى إحناء رؤوسهم وثنى صدورهم للتخفى، وعلم الله يتابعهم في أخفى أوضاعهم،

فالله يعلم ما هو أخفى من ذلك ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فهو عليم بالأسرار المصاحبة للصدور التي لا تفارقها والتى تلزمها كما يلزم الصاحب صاحبه، فهى لشدة خفائها سميت ذات الصدور.

وقال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الرعد، آيات: ١٠، ١١] فعلم الله الواسع الشامل يعلم السر المكنون في الصدور والحركة الخفية في جنح الليل، وكل هامس وكل جاهر؛ كل ذلك وأكثر تحت علم الله، وكل أولئك يتعقبهم حفظة تحصى خواطرهم ونواياهم؛ لذلك كان التعقيب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم، فيرتب عليه الله تصرفه بهم، فإنه لا يغير نقمة أوبؤساً، ولا يغير عزاً أوذلة إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم، وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجىء لاحقاً له في الزمان بالقياس إليهم.

* * *

شهود الله سبحانه وتعالى على أعمال العباد

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة يونس، آية: ٦١] أي: كل ما يعمل الإنسان وكل ما ينويه، وما يتلو من القرآن ويعمل به، أو يبعد عنه؛ كل ذلك في كتاب مبين، فليراقب المسلم ربه في كل عمل يعمله.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة يونس، آية: ١٠٨] الحق: وهو القرآن فمن اهتدى به فإنما يهتدى لنفسه لأن نفعه عائد عليها دون سائر الناس، ومن ضل فإنما يضل عليها، لأن التبعة واقعة عليها دون سائر الخلق.

* * *

باب التوبة مفتوح للعباد

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ ﴾ [سورة الرعد، آية: ٦] أي: أن الله رحيم بعباده حتى وإن ظلموا فترة، فالله يفتح لهم باب المغفرة ليدخلوه عن طريق التوبة، ولكنه يأخذ بعقابه الشديد من يصرون، ولا يلجون من الباب المفتوح، ويقدم السياق هنا المغفرة على العقاب.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠ ﴾ [سورة البقرة، آيات: ١٥٩، ١٦٠] يعطى الله الأمل للناس بالتوبة عليهم إذاهم رجعوا وبينوا وعملوا بما في القرآن من تشريع وأخلاق.

* * *

جدال بعض الناس في آيات الله

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الحج، آيات: ٣، ٤] فهذا الصنف من الناس يجادل في آيات الله بالهوى ويتبع الشيطان الذي يضله عن الهدى والصواب ويهديه إلى عذاب السعير وهو الضلال المهلك المبيد.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنۡيَا خِزۡىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الحج، آيات: ٨ - ١٠] فجدالهم بغير علم ولا يستند إلى دليل ولا يقوم على معرفة، ولا يُستمد من كتاب ينير القلب والعقل، ويوضح الحق ويهدى إلى اليقين، ﴿ ثَانِىَ عِطۡفِهِۦ ﴾ كناية عن الكبر والعجرفة، ولا يكتفى أن يضل؛ إنما يحمل غيره على الضلال، ويوم القيامة يكون جزاءه الخزى والتحقير نظير كبره في الدنيا وجداله عن الحق.

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة لقمان، آيات: ٢٠ - ٢١] أي: ألم تر أن من فضل الله ونعمته على الإنسان أن سخر كل ما في السماوات والأرض لخدمته وتدبير حاجاته، وهيأ له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ومن ذخائره وخيراته، ثم أرسل رسله ونزّل كتبه عليهم نعمة أخرى أجّل، ووصله بروح الله من قبل هذا كله نعمة وفضل !

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة لقمان، آيات: ٢٩ - ٣٠] فحقيقة تسخير الشمس والقمر أيضاً عجيبة وكذا مشهد دخول الليل في النهار ودخول النهار في الليل وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول عجيبة أخرى، والله وحده هو القادر على إنشاء هذا النظام وحفظه، فهاتان حقيقتان كونيتان بارزتان ومعهما حقيقة أخرى يقررها معهما في آية واحدة: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وهكذا تبرز هذه الحقيقة الغيبية إلى جانب الحقائق الكونية حقيقة مثلها ذات ارتباط بها وثيق، ثم يعقب على هذه الحقائق الثلاث بالحقيقة الكبرى التي تقوم عليها الحقائق جميعاً وهى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فذلك النظام الكونى الثابت الدائم المنسق الدقيق قائم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل، فكون الله هو الحق سبحانه وهوالذى يقيم هذا الكون وهو الذي يحفظه وهو الذي يدبره وهو الذي يضمن له الثبات والاستقرار ما شاء الله له أن يكون، فكيف تستمد تشريعاتك وقوانينك وأخلاقك من الغرب ولا تستمدها من كتابه الحق وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

ومن هنا تبدو المجادلة مستنفرة مستنكرة من الإنسان في ظل ذلك الإثبات الكونى الذي يراه وينتفع به، ويبدو هذا الفريق من الناس الذي يجادل ولا يتبع ما أنزل الله منحرف الفطرة ولا يستجيب لداعى الكون كله؛ جاحداً النعمة لا يستند إلى علم ولا يعتمد على تفكير؛ بل هو التقليد الذي يريد الإسلام أن يحرر البشر منه وأن يطلق عقولهم لتدبر آياته المقروءة والمنظورة.

إن الإسلام حرية في الضمير وحركة في الشعور وتطلع إلى النور ومنهج جديد للحياة طليق من أسر التقليد والجمود. إذن فما هو السلوك الواجب تجاه هذا الدليل الكونى والنعمة السابغة؟ ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة لقمان، آية: ٢٢] إنه الاستسلام المطلق لله مع إحسان العمل والسلوك والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته، والعروة الوثقى هى عروة الإسلام لله والاستسلام والإحسان.

قال تعالى: ﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾، [سورة غافر، الآيتان: ٤، ٥].

أي: إن علمه - تعالى - أحاط بجدال الذين كفروا في كل زمان ومكان، فقد كذب كفار قريش وجادلوا رسولهم كما فعل مَن قبلهم من قوم نوح والأحزاب من بعدهم؛ حيث همت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم، فلا تغتر أيها العاقل بتقلبهم بمتاع الدنيا الزائلة، فهو متاع قليل وظل زائل، فإن الله وإن أمهلهم لا يهملهم، بل يأخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر، وفى ذلك تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - ووعيد شديد للكفار؛ حيث قال - تعالى: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة غافر، آية: ٣٥]. تبين الآية مقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وتنذر بطمس الله لقلوب المتكبرين عن اتباع الحق.

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة غافر، الآيتان: ٥٥، ٥٦] أي: فاصبر يا محمد - صلى الله عليه وسلم - على أذى قومك وتكذيبهم وجدالهم في آيات الله بالباطل، إن وعد الله حق بالنصر لك عليهم، وستكون العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، وليكن زادك وزاد أمتك في طريق الصبر الطويل الشاق؛ استغفار للذنب، والتسبيح بحمد ربك في كل وقت وحين، إن الذين يخاصمون ويجادلون في الآيات المنزلة بلا حجة ولا برهان من الله ما في قلوبهم إلا تكبر وتعاظم يمنعهم من اتباعك، وما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله، فاصبر عليهم وتحصن بالله من كيدهم، فإن الله سيدفع عنك شرهم؛ لأنه هو السميع لأقوالهم العليم بهم. والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحى باستبشاعه واستفظاعه، فالإنسان إنما يستعيذ بالله من الشيء الفظيع القبيح الذي يتوقع منه الشر والأذى... وفى الكبر هذا كله، وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله، وهو يؤذى الصدر الذي يحيك فيه ويؤذى صدور الأخرين، فهو شر يستحق الاستعاذة منه.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة غافر، آيات: ٦٩ - ٧٤]

أي: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين لآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل! كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، وهم الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا من الهدى والبيان، وهم إذ كذَّبوا بالقرآن وبمحمد - صلى الله عليه وسلم -، إنما هم يكذبون بهذا كل ما جاء به الرسل، فهي عقيدة واحدة تتمثل في أكمل صورها في الرسالة الأخيرة، ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وبكل رسول. ولهذا يتوعدهم الله بالعذاب الشديد في الآخرة، فقال عز من قائل: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ . فالسلاسل المتصلة بالأغلال بأيدى الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم - والحميم: هو الماء الذي بلغ الغاية في الحرارة - ثم يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم ؟ قال الكافرون: غابوا عنا فلم ينفعونا ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾ وهذا لا ينافى ما يشعر بأن آلهتهم مقرونون بهم في النار، كما ورد في مواضع أخرى من القرآن؛ لأن للنار طبقات ولهم فيها مواقف، فيجوز غيبتهم عنهم في بعضها واقترانهم بهم في بعض آخر، ثم جحدوا عبادتهم فقالوا: ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ فهم يفزعون إلى الكذب لحيرتهم واضطرابهم.

* * *

الفتن والخلاص منها

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ ﴾ [سورة آل عمران، آية: ٧] أي: نزل عليك يامحمد الكتاب منه آيات واضحة الدلالة؛لا التباس فيها على أحد ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: أصله المعتمد عليه في الأحكام، أو أصله الذي يُرجع إليه عند الاشتباه، ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ أي: لا تفهم معانيها؛ كالحروف المقطعة في أوائل السور، أو تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، وجعله كله محكماً في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [سورة هود، آية: ١] ومتشابهاً في قوله: ﴿ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ﴾ [سورة الزمر، آية: ٢٣] بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن والصدق، وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فرُوِي عن السلف عبارات كثيرة، فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به، وقيل في المتشابهات المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به، والمتشابهات يصدق بعضها بعضاً وهذا إنما في تفسير قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ﴾ أي: المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد والمثانى هو الكلام في شيئين متقابلين، كصفة الجنة وصفة النار وذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك، وابتلى الله العباد في المحكم والمتشابه كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ويحرفن عن الحق ولهذا قال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾

أي: فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق فيتبعون ما تشابه منه طلباً للفتنة لجهلهم بوقوعهم في الشبهات واللبس، وابتغاء تفسيره، فيحرفونه
إلى مقاصدهم الفاسدة، ويُنزلونه عليها لاحتمال لفظه لما يُصَرفونه.
﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي : ما يعلم تفسيره إلا الله وحده، ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي: الراسخون الثابتون المتمكنون في العلم يقولون آمنا بكل آياته؛ المحكمة والمتشابهة التي لا نعلم معناها، كلٌ من عند ربنا وما يتعظ إلا أصحاب العقول (تفسير إبن كثير ٣٢٦/١).

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة الإسراء، آيات: ٧٣ - ٧٩] لقد سبق أن حاول المشركون مع الرسول ليفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه من القرآن ليفترىَ عليه غيره وهو الصادق الأمين. لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم، وما كان عليه آباؤهم، ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرَّمه الله، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء.

ولكن الله ثبت رسوله على الحق وعصمه من الفتنة بفضله ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلاً، وللقى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين مضاعفة العذاب في الحياة وفى الممات، دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله، وهذا هو حبيب الله فكيف بنا نحن فاعتبروا يا أولى الألباب !!.

وهذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله هى محاولات المشككين مع أصحاب الدعوة دائماً؛ محاولة إغوائهم لينحرفوا - ولو قليلاً - عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة، ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية؛ إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقى الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها؛ ولو بالتنازل عن جانب منها، ولكنها أول التنازلات وليس آخرها.

وما الخلاص من الفتنة ؟ كن دائماً مع القرآن، ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء، آيات: ٧٨ - ٨٢] لأن في القرآن النجاة والشفاء من وسوسة الشيطان والقلق والحيرة، وتمسك بالدعاء الذي علمه الله لنبيه ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾،

كذلك ففى القرآن شفاء من الهوى والطمع والحسد، وفيه شفاء أيضاً من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء المجتمعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها؛ فيعيش المجتمع في ظل نظامه الاجتماعى وعدالته الشاملة في سلام وأمن وطمأنينة، ومن ثم فهو رحمة للمؤمنين، ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة.

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة العنكبوت آيات: ١ - ٧].

نحن الآن في فتنة وضع الدستور؛ فالقرآن صالح لكل زمان ولكل مكان، ويخاطب البشر في كل جيل لينبههم ويدعوهم إلى الخير ويبعدهم عن الشر والانحراف عن الصراط المستقيم واتباع الهوى، هل ظن الناس أن يتركوا من غير افتتان بمجرد قولهم باللسان آمنا ؟ لا ليس كما ظنوا بل لابد من امتحانهم ليتميز الصادق المؤمن من المنافق؛ فيجب على المؤمنين أن يثبتوا ويصبروا، فمن كان يرجو ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله والعمل بكتابه حتى يلقى الله فيجازيه، فإن لقاء الله قريب الإتيان، وكل ما هو آت فهو قريب، ومن جاهد نفسه بالصبر على طاعة الله، والكف عن الشهوات فمنفعة جهاده إنما هى لنفسه لأن الله مستغن عن العباد.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة العنكبوت، الآيتان: ١٠، ١١] أي: ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم آمنا بالله، فإذا أُوذى أحدهم بسبب إيمانه ارتد ونكث، وجعل ما يصيبه من أذى الناس سبباً صارفاً له عن الثبات على الإيمان؛ جعل ما يصيبه من أذى الناس كعذاب الله الذي يصرف الإنسان عن الكفر، قال المفسرون: والتشبيه ﴿ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ من حيث إن عذاب الله مانع للمؤمنين من الكفر؛ فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الإيمان، وكان مقتضى إيمانهم أن يصبروا ويتشجعوا ويروا في العذاب عذوبه، وفى المحنة منحة، فإن العاقبة للمتقين؛ فإذا أُوذى المؤمن في سبيل الله ليترك سبيله فلن يتركه. فيجب أن يكون الاجتماع على كتاب الله وعلى صراطه المستقيم ولا يكون على القوانين الوضعية الخاضعة للهوى والمصالح الشخصية، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة العنكبوت، آية: ٢٥]، وذلك قول إبراهيم لقومه - توبيخاً لهم وتقريعاً - : إنما اتخذتم هذه الأوثان والأصنام وجعلتموها آلهة مع الله من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة الدنيا باجتماعكم على عبادتها، ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوة وبغضاء حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن الأتباع القادة لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله.

قال تعالى: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة العنكبوت، آية: ٤٥]. اقرأ يامؤمن هذا القرآن المجيد الذي أوحاه الله إلى رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وتقرب إليه بتلاوته وترداده، لأن فيه من محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ما فيه، وداوم على إقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها فإنها عماد الدين، وذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا وهو أن تتذكر عظمته وجلاله؛ تذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك وفي كل أمور حياتك، ولا تغفل عنه في جميع شؤونك. والله يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها أحسن المجازاة. قال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص والخشية وذكر الله؛ فالإخلاص يأمر بالمعروف والخشية تنهى عن المنكر وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة (مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨).

ومن خصائص القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقتين الأولى: الحفظ في السطور والثانية: الحفظ في الصدور، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم، ولهذا دخلها التحريف، وقد جاء في صفة هذه الأمة " أناجيلهم في صدورهم " وقال الحسن: أعطيت هذه الأمة الحفظ وكان من قبلها لا يقرؤون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظ ما فيه إلا النبيون (القرطبي ١٣/ ٣٥٤).

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ

يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة العنكبوت، آيات: ٤٨ - ٥١] أي: إنزال هذا القرآن نعمة عظيمة للعباد بإنقاذهم من الضلالة وتذكرة بليغة لقوم مؤمنين.

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة العنكبوت، الآيتان: ٦٨، ٦٩] أي: لا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذب بالقرآن حين جاءه، وسيهدى الله الذين جاهدوا النفس والشيطان والهوى ابتغاء مرضاة الله إلى صراطه المستقيم.

* * *

الثبات على الإيمان

قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة إبراهيم، آية: ٢٧] أي: يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفى الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر " لا إله إلا الله " المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقى في الحياة، ويثبتهم بكلمات القرآن وسنة الرسول في الدنيا، وبوعد الله الحق بالنصر والتمكين في الدنيا والفوز في الآخرة؛ وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب، ويضل الله الظالمين بظلمهم وشركهم؛ ويكثر استخدام الظلم في السياق القرآنى بمعنى الشرك، وبعدهم عن النور الهادى واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات، واتباعهم مناهج وشرائع من الهوى وليس من اختيار الله لهم؛ يضلهم وفق سنته التي تحق بمن يظلم ويعمى عن النور ويخضع للهوى إلى الضلال والتيه والشرود.

* * *

طاعة الرسول من طاعة الله

قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١ ﴾ [سورة النساء، الآيتان: ٨٠، ٨١] تصور الآيات حال المنافقين وإعراضهم عن طاعة الرسول، ويسرى الله عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيقول له: ﴿ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ أي: فما أرسلناك حافظاً لأعمالهم بل نذيراً، وإلينا أمرهم فنجازيهم على أعمالهم، وإذا جاؤوك قالوا أمرنا طاعة لك، وإذا خرجوا من عندك أضمرت طائفة منهم غير الذي تقول لك في حضورك من الطاعة وعصوا أمرك، والله يثبت ما يبيتونه في صحائف أعمالهم ليجازيهم عليه، ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾ أي: لا تخبر بأسمائهم يعنى: المنافقين وقيل لا تعاقبهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:**(من أطاعنى فقد أطاع الله ومن يعصنى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى)**، وفى رواية:**(ومن أطاع أميرى، ومن عصى أميرى)**.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝١١٥ ﴾ [سورة النساء، آية: ١١٥] أي: من يخالف الرسول فيما جاء به من الحق من بعد أن ظهر له الحق بالمعجزات، ويتبع طريقاً غير طريق المؤمنين الذي هم عليه من الدين بأن يكفر، ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ أي: نجعله والياً لما تولاه من الضلال بأن نخلى بينه وبين ضلاله في الدنيا، وندخله في الآخرة جهنم فيحترق فيها وساءت مصيرا.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الأنفال، آيات: ٢٠ - ٢٤] تقول التفاسير أفرد الله المؤمنين بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم، وجدد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهاهم عن التولى عنه وهذا قول الجمهور، وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما للمنافقين والمعنى: ياأيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط، قال ابن عطية: وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً، لأن الله تعالى وصف من خاطب بهذه الآية بالإيمان، والإيمان يعنى: التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء، وأبعد من هذا من قال أن الخطاب لبنى إسرائيل، فإنه أجنبى من الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾ التولى: الإعراض وقال ﴿ عَنۡهُ ﴾ ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته وهو كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة التوبة، آية: ٦٢] وقوله تعالى ﴿ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ أي: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين في القرآن، ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ أي: اليهود أو المنافقين أو المشركين، وهو من سماع الأذن، وهم لا يتدبرون ما سمعوا، ولا يفكرون فيه، فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق، ونهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم، فدلت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، ولا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله؛ فإذا قصَر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهى فاقتحمها فأى سمع عنده وأى طاعة ! وإنما

يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان، ويُسِر الكفر، ثم أخبر - تعالى - أن الكفار هم شر ما دب على الأرض، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم سماع تفهم للحجج والبراهين، ولكن سبق علمه بشقاوتهم ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ولو أفهمهم لما آمنوا بعد علمه الأزلى بكفرهم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف أن يُجيبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يحيى به قلوبهم فيوحدوا الله، وهذا إحياء مستعار لأنه من موت الكفر والجهل. أي: استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهى؛ ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ أي: يحول بين المرء الكافر والإيمان الذي أمره به، فلا يكتسبه إذا لم يُقدِره عليه، بل أقدره على ضده وهو الكفر، وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر، قال السدى: يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ولا يكفر أيضاً إلا بإذنه؛ أي: بمشيئته، والقلب موضع الفكر (تفسير القرطبى ٧ - ٨ /٢٤٧).

* * *

العدالة الاجتماعية

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة النساء، آيات: ١٠٥ - ١١٣] ورد في التفاسير أن سبب نزول الآيات أن طعمة بن أبيرق سرق درعاً من جاره في جراب دقيق فجعل الدقيق يتسرب من خرق فيها حتى انتهى بها إلى دار يهودى فخبأها عنده، فلما طالبه صاحب الدرع بدرعه وأنكر. تتبع أثرها فاهتدى إليها بالدقيق ووجدها في بيت اليهودى، فشكاه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءه أهل أبيرق يرجونه أن يجادل عن قريبهم خشية أن يفتضح ببراءة اليهودى فنزلت هذه الآية ناهية رسول الله عن ذلك (المصحف المفسر - محمد فريد وجدى /١٢٠)، ونزلت الآية ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة النساء، الآيتان:

١٢٣، ١٢٤] أي: ليس الفوز بالنجاة بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما تُنال النجاة بالإيمان والعمل الصالح، فإن من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا ناصراً.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [سورة النساء آية ١٣٥] أي: ياأيها الذين آمنوا كونوا مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته، تؤدون شهادتكم لوجه الله ولو على أنفسكم أو والديكم أو أقاربكم، وإن يكن المشهود عليه غنياً أو فقيراً فلا تمتنعوا عن أداء الشهادة ميلاً إليه لغناه ولا رحمة به لفقره، فالله أولى بالنظر إلى حال الغنى والفقير منكم، فلا تتبعوا أهواءكم كراهة أن تعدلوا. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة المائدة، آية: ٨].

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة النحل، آية: ٩٠] يقيم القرآن العلاقات بين الحاكم والمحكومين وبين المحكومين وبعضهم البعض على الأسس الثابتة التي لا تتأثر بالرأى والهوى ولا تميل مع المودة والشنآن أو الغنى والفقر، ولا تصرفها المصالح والأغراض، هذه الأسس التي أقامها العليم الخبير. فالعدل هو أساس لإنشاء أمة ومجتمع فاضل؛ فالعدل يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بالود والبغض، والغنى أو الفقر، والقوة أو الضعف، فتكيل بمكيال واحد للجميع وتزن بميزان واحد للجميع، والإحسان يدع الباب

مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب وشفاء لغل الصدور؛ فالإحسان يُلطِف من حدة العدل الصارم، ثم يأتى مبدأ التكافل الاجتماعي في إيتاء ذى القربى، ثم ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ليحفظ المجتمع من الفاحشة والظلم. ثم يأتى الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها. ومن ثم يسعد المجتمع. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة النساء، آية: ٥٨] أي: إن الله يأمركم أن تؤدوا ما اؤتمن عليه من الحقوق إلى أهلها، ويأمركم أن تحكموا بالعدل، فنِعمَ شيئاً يعظكم به من تأدية الأمانة والحكم بالعدل. والله سميع لما يقال بصير بما يفعل.

* * *

حقوق المرأة في القرآن

وضع القرآن تشريعات تبين حقوق المرأة وواجباتها والميراث والعدالة الإجتماعية وتشريعات النكاح والصداق وحماية المجتمع من الفاحشة في سورة النساء. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة النساء آيات: ٢٦ - ٢٨] أي: يريد الله ليبين ما تَعَبَدكُم به من الحلال والحرام، ويرشدكم إلى مناهج أهل الرشد من الذين عاشوا على الأرض قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم. يريد الله أن يتوب عليكم ويريد الذين يجرون وراء شهواتهم أن تميلوا عن الحق ميلاً عظيما، ويريد الله أن يخفف عنكم بمنحكم شريعة سمحة لا تعسير فيها مناسبة لضعف طبيعتكم الإنسانية.
بين القرآن تشريعات لحقوق المرأة بعد أن عانت ضروباً شتى وألواناً عديدة من المذلة في حياتها من قسوة المجتمع وظلمه لها في العصور الجاهلية؛ وحتى عصرنا الحالى الذي يتشدق متقفوه بحقوق المرأة، وهو لا يحترم مشاعرها.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾ [سورة النساء، الآيتان: ٣، ٤]
أي: إن كنتم تخافون أن لا تعدلوا في يتامى النساء إن تزوجتم بهن تحرجاً من تبعة ظلمهن، فتزوجوا من غيرهن مثنى وثلاث ورباع، واحذروا أيضاً أن لا تعدلوا بينهن كما تخافون ذلك في اليتامى،

فإن رأيتم أن العدل بينهن غير متيسر فتكفيكم واحدة أو ما ملكتم من الإماء، ذلك أقرب أن لا تميلوا عن الحق. وآتوا النساء مهورهن عطية.

قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾ [سورة النساء آية: ١١] جعل القرآن للنساء نصيباً في الميراث كما ورد في الآية.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة النساء، آيات: ١٩ - ٢٥] أي: ياأيها المؤمنون لا يحل لكم أن ترثوا النساء بعد موت أزواجهن كعادتكم في الجاهلية؛ إذ كانوا يرثوهن كما يرثوا الدواب والأمتعة، ولا تمنعوهن التزوج بغيركم إذا كرهتموهن ليتنازلن لكم عن مهورهن، إلا أن يأتين بفاحشة محققة. وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، وإن شئتم أن تستبدلوا زوجة مكان أخرى وأعطيتم التي تريدون تطليقها مالاً فلا تستردوا منه شيئاً، واحذروا أن تتزوجوا من نسائكن زوجات لآبائكم إلا ما مضى من ذلك، ثم أخذ يسرد الله ذوات القربى اللاتى لا يصح التزوج بهن. وهذا أبلغ وأكمل ما عرف في الشرائع من الحث على حفظ حقوق المرأة. والله وحده هو صاحب الحق في وضع هذه التشريعات فهو أعلم بضعف البشر وفطرتهم. والقرآن كما هو معلوم مكون من سور مكية نزلت بمكة قبل الهجرة وسور مدنية نزلت بالمدينة بعد الهجرة. فالسور المكية كانت تهتم بتكوين وتثبيت عقيدة الجماعة المسلمة مبنية على أساس إفراد الله - سبحانه وتعالى - بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، والسور المدنية تبنى على ذلك التصور الإيمانى الصحيح، وهو إنشاء أمة؛ وإقامة دولة وتنظيم مجتمع على أساس من العقيدة الصحيحة، وما يلزم ذلك من اتباع منهج الله وشريعته والتلقى منه وحده بلا شريك.

وإن حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت حقيقة الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان في اعتقادهم وتصورهم واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم، ومن أجل ذلك كان جوهر الرسالات والكتب هو تثبيت ألوهية الله - سبحانه وتعالى - وربوبيته للعباد. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الأنبياء، آية: ٢٥].

* * *

التوسعة في الرزق والتمكين في الأرض

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة يوسف، آية: ١١١]، أي: لقد كان في أخبار الأنبياء اتعاظ وعبرة لأصحاب العقول، ما كان هذا القرآن حديثاً يمكن افتراؤه، ولكن فيه تصديق الكتب التي تقدمته وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون؛ تفصيل كل ما بالعباد إليه حاجة من بيان أمر الله ونهيه، وعلى سبيل المثال فقصة يوسف - عليه السلام - نموذج لتثبيت وتطمين سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن بعده الجماعة المسلمة بالنصر والتمكين في الأرض رغم الابتلاءات والدخول في السجن والخروج من الوطن، مهما بدا أن الخروج كان إكراهاً تحت التهديد ! كما أُخرج يوسف -عليه السلام - من حضن أبيه ليواجه ابتلاءات محنة كيد الإخوة؛ محنة الجب والخوف والترويع، ثم محنة الرق وهو يتنقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله، ثم محنة كيد امرأة العزيز والنسوة، ثم محنة السجن، وينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة يوسف، الآيتان: ٥٦، ٥٧] فمن هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ؟ هم الذين آمنوا بالكتاب العربى المبين وعملوا بما بينه الكتاب من حلال وحرام، وكانوا يتقون الشرك والفواحش. قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة يوسف، الآيتان: ١، ٢]

ويدل التعقيب على القصة أن هذه سنة عامة في الخلق بتمكين رسل الله والذين آمنوا والداعين إلى وحدانية الله، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة يوسف، الآيتان: ١٠٩، ١١٠] أي: وما أرسلنا إلى الأمم قبلك إلا رجالاً مثلك نميزهم عن الكافة بالوحي ونسند إليهم هداية الناس إلى سبيل الرشاد، أفلم يسيحوا في أقطار الأرض فينظروا كيف كان مصير الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة خير للذين خافوا ربهم، أفلا تعقلون ؟!

حتى إذا أيس الرسل، وظنوا إنهم أُخلِفوا ما وُعدوا من النصر على الكافرين، جاءهم نصرنا فنجى من نريد، ولا يرد عذابنا عن القوم المجرمين.

و قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة غافر آية: ٥١].

و قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة النور، آية: ٥٥] أي: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يستخلفهم في الأرض وأن يُمكِن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ليحققوا المنهج الذي أراده الله ويقرروا العدل ويعمروا الأرض، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٩٦] أي: لو أن أهل المدن أو القرى آمنوا بالله واتقوا لأغدق عليهم الله بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا بالرسل فأخذهم بما كانوا يذنبون.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٦٥، ٦٦] أي: لو أن أهل الكتاب آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - واتقوا الكفر

﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل؛ ومنه الإيمان بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وما أُنزل الله من الكتب لوسَع عليهم الله في الرزق وأفاضه عليهم من كل جهة؛ من أهل الكتاب جماعة ﴿ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ أي: تعمل بما أُنزل إليهم من الكتب وتؤمن بالنبى - صلى الله عليه وسلم -، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة قريش، آيات: ١ - ٤] يُذكِر الله المسلمين في القرآن برحلاتِ قريش - من قبل الإسلام وبعده - إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف من كل عام؛ يستعينون بالرحلتين للتجارة على المُقام في البلد الحرام؛ وهو شرفهم،

ومعروف أن أرض مكة غيرصالحة للزراعة، فأطعمهم الله من أجل خدمة البيت الحرام، وأمَنَهم مما يُخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال، فالشعور بالجوع والخوف أصعب ما يصيب الإنسان.

* * *

الحدود والآداب في القرآن

نبدأ بإذن الله - تعالى - بالأحكام التشريعية المتعلقة بحماية النفس البشرية في المجتمع المسلم المحكوم بمنهج الله وشريعته، وحماية النظام العام وصيانته من الخروج عليه، وعلى السلطة التي تقوم عليه بأمر الله وفى ظل شريعة الله، ثم الأحكام الخاصة بحماية المال والملكية الفردية، ثم الأحكام الخاصة بصيانة الأسرة من الفاحشة، وتوفير أسباب الحياة النظيفة، ثم آداب البيوت وآداب الاستئذان على أهلها.

* * *

عقوبة الفساد في الأرض وهو المعروف في الشريعة الإسلامية بحد الحرابة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٣٣، ٣٤] تقرر الآية عقوبة العصابات المسلحة التي تخرج على الحاكم الذي يحكم بشريعة الله، فتروع الآمنين وتعتدى على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم؛ فهؤلاء الخارجون على الحاكم الذي يحكم بشريعة الله والمعتدون على أهل هذا المجتمع المقيم للشريعة - سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين - لا يحاربون الحاكم، ولا يحاربون الناس وحدهم، إنما هم يحاربون الله ورسوله.

حينما يحاربون شريعته، ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة، وهم بذلك يسعون في الأرض فساداً؛ فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله، وترويع الوطن الذي تقام فيه هذه الشريعة.

إذن فما هى عقوبة هذه العصابات المسلحة الخارجة على الإمام المسلم الذي يحكم بشريعة الله ؟ إنما جزاؤهم أن يقتلوا تقتيلا عادياً أو أن يصلبوا حتى يموتوا " وبعض الفقهاء يفسر النص بأنه الصلب بعد القتل للترويع والإرهاب " أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى. ويختلف الفقهاء اختلافاً واسعاً حول هذا النص: إن كان للإمام الخيار في هذه العقوبات، أم أن هناك عقوبة معينة لكل جريمة تقع من الخارجين، كذلك يختلفون في معنى النفى من الأرض... هل هو النفى من الأرض التي أُرتكِبت فيها جريمته؟ أم هو النفى من الأرض التي يملك فيها حريته وذلك بحبسه؟ أم هو النفى من الأرض كلها ولا يكون ذلك إلا بالموت ؟

﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا الجزاء في الدنيا لا يعفيهم من عذاب الآخرة، فإذا ارتدع هؤلاء المفسدون عن غيهم وفسادهم؛ توبة منهم إلى الله ورجوعاً إلى طريقه المستقيم - وهم ما يزالون في قوتهم، لم تنلهم يد الحاكم - سقطت جريمتهم وعقوبتها معاً، ولم يعد للحاكم عليهم سبيل، وكان الله غفوراً لهم رحيماً بهم في الحساب الأخير، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

* * *

القصاص والدية

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٤٤، ٤٥] فشريعة القصاص عامة للناس كافة وللأزمان كافة كما أرادها الله وهي جزء من شريعة المسلمين، أُضيفَ إليها حكم آخر وهو ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ ولم يكن ذلك في شريعة التوراة. إذ كان القصاص حتماً، لا تنازل فيه، ولا تصدق به، ومن ثم فلا كفارة. وأول ما تقرره شريعة الله في القصاص هو مبدأ المساواة.. المساواة في الدماء والمساواة في العقوبة، فتقتص للنفس بالنفس، وتقتص بالجوارح بمثلها، على اختلاف المقامات والطبقات والأنساب والدماء والأجناس؛ فلا تمييز ولا عنصرية ولا طبقية ولا حاكم ولا محكوم.. كلهم سواء أمام شريعة الله، فمن قتل يقتل، ومن قطع يداً أو رجلاً قطعت يده أورجله؛ أي أخِذ بمثل ما أحدث من إصابة أياً كانت. ومن تصدق بالقصاص متطوعاً.. سواء كان هو ولى الدم في حالة القتل، أو كان هو صاحب الحق في حالة الجروح كلها، والصدقة تكون بأخذ الدية مكان القصاص، أو بالتنازل عن الدم والدية معاً، ويبقى للإمام تعزير القاتل بما يراه. وصدقته هذه كفارة لذنوبه.

* * *

حد السرقة

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٣٨، ٣٩] قبل تطبيق حد من حدود الله يجب تقرير حق كل فرد في المجتمع المسلم في العيش بكرامة، من حق كل فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يكون له بيت يؤويه ويجد فيه السكن والراحة، يجب أن يحصل على هذه الضروريات عن طريق العمل مادام قادراً على العمل، وعلى الدولة أن تعلمه كيف يعمل، وأن تيسر له العمل.. فإذا تعطل لعدم وجود العمل، أو لعدم قدرته على العمل، أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفيه فله الحق في استكمال ضرورات حياته من عدة وجوه: أولاً: من النفقة التي تفرض له شرعاً على القادرين في أسرته، وثانياً: على القادرين من أهل محلته، وثالثاً من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له في الزكاة.

إن شرع الله يوفر للمجتمع القائم به ضمانات العيش والكفاية لكل أفراده - على اختلاف عقائدهم - كما يوفر ضمانات العدالة الإجتماعية لأفراده جميعاً، ثم بعد ذلك يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية، وفى الوقت نفسه يجعل كل ملكية فردية تنبت من حلال بحيث لا تثير الملكية الفردية في المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون؛ ولا تثير أطماعهم في سلب ما في أيدى الآخرين.

إذن فلماذا يسرق السارق في ظل هذا النظام ؟ إنه لا يسرق لسد حاجة. إنما يسرق للطمع في الثراء من غير طريق العمل، والثراء لا

يطلب من هذا الوجه الذي يروع الناس في المجتمع المسلم، ويحرمهم الطمأنينة التي من حقهم أن يستمتعوا بها.

فمن حق المجتمع أن يقيم عليه الحد، فهو يسرق ما في أيدى الآخرين ولا عذر له، ولا ينبغى لأحد أن يرأف به متى ثبتت عليه جريمة السرقة.

أما حين توجد شبهة من حاجة أوغيرها، فالمبدأ العام في الإسلام هو درء الحدود بالشبهات. لذلك لم يقطع عمر - رضى الله عنه - في عام الرمادة، حينما عمت المجاعة.

إذن لا توقع العقوبات في الحدود عامة إلا في الحالات الثابتة التي لا شبهة فيها. فالإسلام منهج حياة متكامل لا يقوم أساساً على العقوبة؛ إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة، ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ في الوحل طائعاً غير مضطر فإذا وقعت الجريمة بعد هذا كله فهو يدرأ الحد ما كان هناك مخرج منه لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :(ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام إن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة) (أخرجه الترمذى من حديث عائشة - رضى الله عنها -)، ويقول - صلى الله عليه وسلم - :(تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب) (أخرجه أبو داود في كتاب الحدود - باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان)، فإذا وقع اليقين وبلغ الأمر إلى الحاكم، فقد وجب الحد ولا هوادة.

* * *

حد الزنا وحد القذف

تبين سورة النور حدود وآداب وأخلاق تهدى المجتمع - تُنير القلوب وتنير الحياة وتربطها بخالقها، فنجد فيها حد الزنا وحد القذف لصيانة الأسرة، ويفصل آداب البيوت وآداب الاستئذان على أهلها، والأمر بغض البصر، والنهى عن إبداء الزينة وذلك لضمان الطهر والتعفف، ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية.

قال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٩

وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة النور، آيات: ١ - ١٠] وتبدأ السورة بكلمة ﴿ وَفَرَضۡنَٰهَا ﴾ ليتأكد الأخذ بكل ما في السورة من حدود وآداب على وجه سواء؛ ففرضية الآداب والأخلاق فيها كفرضية الحدود والعقوبات.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة النور، آيات: ٢٧ - ٣١] تبين آداب البيوت وآداب الاستئذان على أهلها، ثم غض البصر والنهى عن إبداء الزينة للمؤمنات.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ

بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة النور، الآيتان: ٥٨، ٥٩] وهنا تبين الآيات آداب الاستئذان.

* * *

نعمة العلم

من يمنحه الله نعمة العلم ؟... هم المؤمنون؛ فعلم الله هو المطلق بالظاهر والباطن، وهو أعلم بصلاح الناس وسعادتهم، وأعلم بالغيب وأعلم بآياته الكونية التي يكشف بعضها للناس. إن في القرآن كنوزاً ضخمة من الهدى والمعرفة، والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ ﴾ [سورة النمل، آية: ٦] فقد وهب داود وسليمان - عليهما السلام - العلم كما ورد في الآية: ١٥ من سورة النمل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ وفى قول سليمان " قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾ [سورة النمل، آية: ١٦]، وعندما أراد سليمان - عليه السلام - استحضار عرش ملكة سبأ، لم يقدر عفريت من الجن على إحضاره في غمضة عين؛ إنما استطاع ذلك ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝ ﴾ [سورة النمل، آية: ٤٠] وقيل أن قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي: علم التوراة وقيل غير ذلك. إذن فمن هم المؤمنون..؟ هم المؤمنون بآيات الله في القرآن الكريم حيث بشرهم الله بالهدى، قال تعالى: ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ [سورة النمل، آيات: ١ - ٣] وقال تعالى ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٨٢] كلما كان القلب عامراً بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن، وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه القلب الصلد الجاف، واهتدى بنوره

إلى ما لا يهتدى إليه الجاحد، وكل النظم والشرائع والآداب التي يتضمنها هذا القرآن إنما تقوم قبل كل شيء على الإيمان. وجاء التعقيب في سورة النمل التي تبرز صفة العلم في جوها وفي سياقها كلها من المطلع إلى الختام قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الآيتان: ٦٥، ٦٦] وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الآيتان: ٧٤، ٧٥] وختمت السورة بقول،ه تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [آيات: ٩١ - ٩٣].

علمنا ربنا كيف نشكره على نعمة العلم حيث قال تعالى على لسان نبيه سليمان - عليه السلام - دعاء كامل: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة النمل، آية: ١٩]. ﴿ أَوْزِعْنِيٓ ﴾ أي: اجمعنى كلى؛ اجمع جوارحى ومشاعرى ولسانى وجنانى وخواطرى وخلجاتى وكلماتى وعباراتى وأعمالى وتوجهاتى؛ اجمع طاقاتى كلها؛ أولها على آخرها، وآخرها على أولها لتكون كلها في شكر نعمتك عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه؛ فالعمل الصالح هو كذلك فضل ونعمة من الله يوفق إليه من يشكر نعمته وليس هذا فقط ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾؛ فالدخول في عباد الله الصالحين رحمة من الله تدرك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح فيسلك في عداد الصالحين.

أما غير المؤمنين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [سورة النمل، آية: ٤] زين الله لهم أعمالهم القبيحة حتى رأوها حسنة، قال الرازى: والمراد بالتزيين هو أن يخلق في قلبه العلم بما في أعمالهم من المنافع واللذات، ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات (التفسير الكبير ٢٤ / ١٧٩).

إن البشر يكتبون علمهم وقوانين حياتهم عن طريق كتابتها بأقلام يمدونها بمداد من الحبر ونحوه، لا يزيد هذا الحبر عن ملء دواه، أو ملء زجاجة، أي أن علمهم محدود. ويمثل القرآن علم الله وآياته أنه لو تحول ما في الأرض من شجر إلى أقلام وجميع ما في الأرض من بحر تحول إلى مداد؛ بل إن هذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك... وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة الدالة على علمه الغير محدود فماذا يكون ؟ لقد نفدت الأقلام ونفد المداد ونفدت الأشجار ونفدت البحار وكلمات الله باقية لم تنفد ولم تأت لها نهاية؛ إنه المحدود يواجه غير المحدود، ومهما بلغ المحدود فسينتهى، ويبقى غير المحدود لم ينقص منه شيء على الإطلاق. قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧ ﴾ [سورة لقمان، آية: ٢٧].

وعن قضية العلم الإلهى الذي يلهم به بعضاً من عباده. قال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ﴾ [سورة سبأ، أية: ٢]. فلو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصرون ما يقع في لحظة واحدة لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين؛ فكم من شىء في هذه اللحظة يلج في الأرض، وكم من شىء يخرج منها، وكم من شىء في هذه اللحظة ينزل من السماء، وكم من شىء يعرج فيها، وكم من حبة تختبىء بين حبيبات التربة، وكم من كائن حى حيوانى يختفى في

الأرض، وكم من قطرة ماء ومن ذرة غاز ومن إشعاع تندس في الأرض في أرجائها الفسيحة ؟

كم يخرج من الأرض ؟ كم من نبتة تنبثق ؟ وكم من نبع يفور ؟ وكم من بركان ينفجر ؟ وكم من غاز يتصاعد ؟ وكم من مستور ينكشف بإذن الله ؟ وكم من حشرة تخرج من سكونها ؟ وكم مما يُرى ومما لا يُرى ومما يعلم البشر ومما يجهلونه وهو كثير ؟!

وكم مما ينزل من السماء ؟ كم من قطرة مطر ؟ وكم من شهاب ثاقب ؟ وكم من شعاع محرق ومن شعاع منير ؟ وكم من قضاء نافذ وقدر مقدور ؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد ؟ وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر ؟ وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله؟!

وكم مما يعرج فيها ؟ وكم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان ؟ وكم من دعوة إلى الله في العلن وفى الستر لم يسمعها إلا الله في علاه ؟ وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة ؟ وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله ؟ وكم من قطرة بخار صاعدة من بحر، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم ؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه ؟! كم يحدث من ذلك في لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال في العد والإحصاء ؟ وعلم الله الشامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله في كل مكان وفى كل زمان.... وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وما له من حركات وسكنات تحت عين الله، وهو مع هذا يستر ويغفر ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

[سورة سبأ، آية: ٣] ونقف هنا أمام لفتة في قوله تعالى: ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وما يعرفه البَشر بعد تحطيم الذرة ما هو أصغر من الذرة والتي لم تكن في حسبان أحد حين تنزل القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً! وتبارك الله الذي يُعلِم عباده ما يشاء من أسرارصنعته ومن أسرار خلقه عندما يشاء. قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾ [سورة فاطر، آية: ٢] يعنى: أي شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته؛ من نعمة؛ صحة؛ أمن؛ علم وحكمة ورزق؛ وإرسال رسل لهداية الخلق وغير ذلك من صنوف نعمائه، فلا يقدر أحد على إمساكه وحرمان خلق الله منه، وأى شيء يمسكه ويحبسه عن خلقه من خيرى الدنيا والآخرة، فلا يقدر أحد على منحه للعباد.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر، آية: ٢٨] أي: إنما يخشاه تعالى العلماء لأنهم عرفوه حق معرفته، قال ابن كثير: أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر (مختصر ابن كثير ١٤٦/٣) ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخافون الله ويرجون رحمته فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ ﴾ [سورة فاطر، آية: ٢٩] أي: إن أول صفاتهم أنهم يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، وينفقون من أموالهم في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الزمر، آية: ٩] أي: الجديرون بالمعرفة المستنيرة وتفتح البصيرة إلى العلم الحقيقى هم المؤمنون بصفاتهم المذكورة؛ فالقنوت والطاعة والخوف من الآخرة ورجاء رحمة الله هى أهم صفاتهم، فهذا الصفاء وهذه الشفافية هى التي تفتح البصيرة وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقى؛ والعلم الحق هو المعرفة وهو إدراك الحق، وهو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود، ومن ثم يدرك اللب ويعرف، وينتفع بما يرى ويسمع وما يجرب، وينتهى إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة.

وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة فصلت، آية: ٥٣] إنه وعد من الله سبحانه وتعالى لعباده من بنى البشر أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء حتى يتبين لهم أن هذا الكتاب وهذا المنهج وهذا القول الذي أنزله لهم هو الحق ومن أصدق من الله حديثا ؟!

* * *

نماذج من القرآن
لانتصار الحق على طغيان السلطان وطغيان المال

نجد في القرآن الكريم المُنَزل على رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - صورة من طغيان الحكم والسلطان ممثلة في قصة موسى -عليه السلام - وفرعون، قال تعالى: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة القصص، آيات: ٣ - ٦]، وصورة أخرى من طغيان المال في قصة قارون، ونهاية الطغيان وانتصار الحق، وفى هذا عظة وعبرة لقوم يؤمنون بالقرآن. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ

ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة القصص، آيات: ٧٦ - ٨٢].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة القصص، آيات: ٤٣ - ٤٦] أي: ولقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من المكذبين. ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي ضياءاً لبنى إسرائيل ونوراً لقلوبهم يتبصرون بها الحقائق ويميزون بها بين الحق والباطل، وهدى من الضلالة، ورحمة لمن آمن بها، ليتعظوا بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية، ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ولكنا خلقنا بين زمانك يامحمد وزمان موسى قروناً كثيرة؛ فتطاول عليهم العمر، وتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الأنباء فأوحينا إليك (تفسير أبو السعود ٤/ ١٥٥)، ولم تشاهد شيئاً من أخبار وقصص الأنبياء، ولكنا أوحيناها إليك وقصصناها عليك رحمة من ربك لتخوف قوماً ما جاءهم رسول من قبلك لعلهم يتعظون، والمراد بالقوم: الذين كانوا في زمن الفترة من عيسى ومحمد - صلوات الله عليهما - وهى نحو من ستمائة عام.

قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٩ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠ ﴾ [سورة القصص، آيات: ٤٩ - ٥٠] أي: قل للمنكرين يامحمد - ونحن نقول للمعاصرين المكذبين أيضاً - على سبيل التعجيز! إنكم إذ كفرتم بهذين الكتابين وهما التوراة والقرآن مع ما تضمنا من الشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق فأتونا بكتاب مُنَزل من عند الله أهدى منهما وأصلح نتمسك به إن كنتم صادقين. قال ابن كثير: وقد عُلم بالضرورة لذوى الألباب أن الله تعالى لم يُنزل كتاباً من السماء أكمل ولا أشمل ولاأفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى - عليه السلام - وهو الكتاب الذي قال عنه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة المائدة، آية: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ ﴾ [سورة آل عمران، الآيتان: ٣، ٤]، والإنجيل إنما أُنزل متمما للتوراة ومحللاً لبعض ما حُرم على بنى إسرائيل (مختصر ابن كثير ٣/ ١٧). ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

أي: فإن لم يُجيبوك إلى ما طلبته منهم فاعلم أن كفرهم عناد واتباع للأهواء؛ لا بحجة ولا برهان، وإن الله لا يوفق للحق من كان معانداً ظالماً بالانهماك في اتباع الهوى والإعراض عن سبيل الهدى.

* * *

الفساد في الأرض ناتج عن ظلم الناس

قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الإسراء، آيات: ٢ - ٨]. لنا في قصة بنى إسرائيل وعلاقتها بالتوراة عبرة، أرسل الله التوراة على موسى هدى لبنى إسرائيل؛ ليعملوا بما فيه ومؤسس على ألا يتخذوا من دون الله رباً يكلون إليه أمرهم، وهى رسالة كل الرسل الذين أرسلهم الله، فما كان منهم إلا أن تركوه وراء ظهورهم ومن ثم فشا الفساد، فما كان نتيجة ذلك ؟ أن حقت عليهم سنة الله وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سبباً لهلاكها وتدميرها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء، آية: ١٦]. ففى ذلك الكتاب الذي آتاه الله لموسى ليكون هدى لبنى إسرائيل، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم في الأرض، وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرار أسبابه من أفعالهم، وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض؛ تصديقاً لسنة الله الجارية التي لا تتخلف. ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الأزلى من مآلهم؛ لا أنه قضاء قهرى عليهم تنشأعنه

أفعالهم، فالله - سبحانه وتعالى - لا يقضي بالإفساد على أحد، إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائن، فما سيكون - بالقياس إلى علم الله - كائن، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد، ولم يُكشف عنه الستار.

ولقد قضى الله على بنى إسرائيل في الكتاب الذي أرسله إلى موسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون، وكلما ارتفعوا اتخذوا الإرتفاع وسيلة للإفساد، فسلط الله عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميرا ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾، وهذه هى الأولى؛ حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات القهر والذل فرجعوا إلى ربهم وأصلحوا أحوالهم وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم؛ فطغوا هم الآخرون، وأفسدوا في الأرض، فمكن الله للمستضعفين من المستكبرين ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾. فالقاعدة الأساسية التي لا تتغير هي: " **الجزاء من جنس العمل** " ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ فإذا تكرر الإفساد تكرر التدمير وهذه هى العبرة في بيان سنة الله في الخلق، ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ إن أخذتم العبرة واستفدتم منها، وأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾.

وهذه القصة موجهة إلى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ليتعظوا بها ويعرفوا سنة الله الماضية ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الإسراء، الآيتان: ٩، ١٠] فالقرآن يهدى للتى هى أقوم هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أجناساً وأجيالاً في كل زمان ومكان ويشمل ما يهديهم إليه في كل مناهج الحياة، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض؛ أفراداً وجماعات؛ شعوباً وحكومات، يهدى للتى هى أقوم في نظام الحكم ونظام المال والاجتماع، ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان، فأما الذين لا يهتدون بهدى القرآن؛ فهم متروكون لهوى الإنسان؛ الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته، ولوكان وراءها الشر له.

والقاعدة الأساسية أنه إذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها المترفون فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم. سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق؛ فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله وأصابها الدمار والهلاك؛ فهى المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدى المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين.

قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الروم، آية: ٤١] أي: انتشار المجاعات والكوارث الطبيعية والفساد براً وبحراً ناتج عن فساد الناس وأعمالهم وبعدهم عن منهج الله، ويكون الفساد مسيطراً على أقدار الأرض؛ فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثاً ولا يقع مصادفة؛ إنما هو تدبير الله -عز وجل - وسننه، ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾

من الشر والفساد وتسليط الحكام، وحينما يكتوون بناره ويتألمون لما يصيبهم به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيقاومون الفساد ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم. و قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٩٦].

* * *

الخاتمة

اللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا من نعمك العظيمة وآلائك الجسيمة؛ حيث أرسلت إلينا أفضل رسلك محمداً - صلى الله عليه وسلم - وأنزلت علينا أشرف كتبك - القرآن الكريم - وشرعت لنا أفضل شرائع دينك، وجعلتنا من خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذه دعوة إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم لا نبتغى فيها غير وجه الله الكريم، وأقر باننى لا أنتمى إلى أي فصيل سياسى ولا أنتوى، ولكنها دعوة خالصة لله تعالى، والله الموفق والمستعان.

د. عبد الرحيم سلطان متولى

* * *

المراجع

١ - تفسير أبو السعود.

٢ - تفسير ابن كثير.

٣ - تفسير القرطبي.

٤ - تفسير الكشاف.

٥ - تفسير الجلالين.

٦ - التفسير الكبير للرازي.

٧ - التسهيل لعلوم التنزيل.

٨ - صفوة التفاسير.

٩ - في ظلال القرآن.

١٠ - المصحف المفسر " محمد فريد وجدى ".

١١ - المصحف المفسر " للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ".

١٢ - حجة الله البالغة للشيخ أحمد المعروف بشاه ولى الدين بن عبد الرحيم.

* * *



نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الاسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتاليف والترجمة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

١٨١٠٦
٢١

السيد / عبد الرحيم سلطان متولي عبد الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ــ وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : القرآن .. دستورنا
.... تاليفكم . وعدد صفحاته ٩٤ صفحة

نفيد بان الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع
من طبعه ونشره على نفقتكم الخاصة وفي حالة الزيادة او النقصان يعتبر التصريح لاغيا

مع التاكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والاحاديث
النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبع .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عام
ادارة البحوث والتاليف والترجمة

تحريرا في ٢١ / رجب / ١٤٣٣ هـ
الموافق ١١ / ٦ / ٢٠١٢ م

يعتمد
الأمين العام

الفهرس

* * *

الفهرس